الفصل الثالث

الأندلس والشمال الإفريقي
بعد سقوط دولة الموحدين

obeikandl.com

obeikandl.com

الأندلس والشمال الإفريقي
بعد سقوط دولة الموحدين

بعد سقوط دولة الموحدين في عام 668هـ / 1269م مرت بلاد الأندلس بمرحلة طويلة امتدت قرنين ونصف ثم بعد ذلك سقط آخر معاقلها في يد النصارى الإسبان في عام 897هـ، ويظهر جهاد بني الأحمر وزعامتهم القوية لغرناطة بعد سقوط الموحدين، وهذه المرحلة من تاريخ الأندلس الإسلامي غنية بالعبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وتظهر سنن الله في سقوط الدول واضحة المعالم وكذلك الآثار المترتبة عن الابتعاد عن منهج الله تعالى.

أما الشمال الإفريقي بعد سقوط الموحدين، فانقسم إلى دول، لا تجاوز الواحدة منها في أحيان إطار المدينة، ولا تجاوز في أحيان أخرى إطار القبيلة واتسمت تلك الفترة التاريخية بالتداخل والتعقيد والغموض، واشتدت النزاعات الداخلية وتتابعت الهجمات الخارجية، وظهرت فتن تجعل الحليم حيران من كثرتها وتشابهها، ومرت المنطقة بعملية مخاض طويلة، لأن دولة الموحدين نفسها مرت بمرحلة سقوط طويلة، وخرج من ذلك المخاض الطويل دول من أهمها: دولة بني حفص في إفريقية، دولة بني زيان في المغرب الأوسط، دولة بني مرين (ثم بني وطاس في المغرب الأقصى).

وسنحاول بإذن الله تعالى في الصفحات القادمة أن نتحدث عن تلك الدويلات التي قامت في الأندلس والشمال الإفريقي، مستخلصين العبر والعظات والدروس المستفادة من دراسات تلك الدويلات التي أصبحت كأن لم تغن بالأمس.

المبحث الأول

مملكة غرناطة

سقطت دولة الموحدين على يد المرينيين في المغرب الأقصى، وملك محمد ابن يوسف بن هود قواعد الأندلس، وظهر محمد بن يوسف الأنصاري في الجنوب، وغلب بعض الأمراء على إشبيلية، ونشب صراع على السلطة والملك بين أمراء الأندلس ودخلوا في قتال عنيف لنزع الحصون والقلاع من بعضهم البعض.

وكانت مملكة قشتالة النصرانية الإسبانية تتابع ما يدور في أراضي المسلمين بواسطة أجهزة استخباراتها التي استطاعت أن تجند رجالاً يعملون لحسابها، فرأت أن الفرصة حانت لتوجيه ضربة مميتة للمسلمين في الأندلس، فبدأت هجومها بالفعل، وكان احتلال قرطبة في 23 شوال 633هـ / 29 حزيران (يونية) 1236م، صيحة النذير المدوية، لقد كان سبب سقوط قرطبة المعاصي والآثام والابتعاد عن منهج الله العظيم، وبالتالي أصابهم الضعف ودخلوا في الفوضى والنزاع والخلاف، فقادهم ذلك إلى فقد الأوطان والأرض ومن ثم ضاعت الحضارة والتراث والإسلام وبدأت مدن الإسلام الكبرى تتساقط في يد النصارى، فسقطت بلنسية عام 636هـ/ 1238م ثم شاطبة ودانية وفي عام 646هـ سقطت إشبيلية بعد حصار شديد ودفاع من المسلمين مجيد ودام الحصار ثمانية عشر شهراً، أبدى فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد والدفاع عن إشبيلية، وأخيراً جاء مصير أسود محتوم واستسلمت المدينة لفرديناند الثالث، على أن يخُيَّر المسلمون بين البقاء في أشبيلية، أو يهاجروا وفي الحال، وحُول مسجدها الجامع إلى كنيسة، وأزيلت منها معالم الإسلام وتوزع أهلوها في الحواضر الإسلامية الباقية.

لقد كان سقوط إشبيلية إيذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها وبين مصب الوادي الكبير فاستولى النصارى تباعاً على: شريش، شذونة، قادس، شلوقة، غليانه، روضة، ثغر شنتمرية، وغيرها... وتحالف ابن الأحمر مع النصارى وعاونهم في الاستيلاء على قادس، وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر

الأراضي الإسلامية في غربي الأندلس، وانكمشت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة[1].

ويصف الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرندي تلك الأوضاع التي وصل إليها حال الأندلس ووضح في قصيدته أسباب تلك المأساة التي وقعت فيها شعوب الأندلس من تركهم لعوامل القوة والنصر، وحبهم للدعة والخنوع والترف، لقد عبرت تلك القصيدة عن مشاعر وأحاسيس الشاعر بوضوح، وأعطت تلك الأحاسيس الصادقة والمشاعر المخلصة والحزن العميق على ما حل بالمسلمين روحاً لتلك القطعة الشعرية المعبرة عن تلك الأحداث الجسام، عندما سقطت القواعد الأندلسية الكبرى، كقرطبة، وبلنسية وإشبيلية ومرسية بيد النصارى.

لقد صور الشاعر المسلم أبو البقاء الرندي مأساة الأندلس في قصيدة تقطر ألماً وحزناً، فلله دره فلكم أغنت عن عشرات الكتب والمجلدات.

قال الشاعر:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتها دُوَلٌ ... من سرّه زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحدٍ ... ولا يدوم على حال لها شان
أين الملوك ذوو التيجان من يَمَنٍ ... وأين منهمُ أكاليل وتيجان
أتى على الكل أمرٌ لا مردّ له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
فجائع الدهر أنواع منوّعة ... وللزمان مسرّات وأحزان
وللحوادث سلوانٌ يسهِّلها ... وما لما حل بالإسلام سلوان
دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له ... هوى له أُحُدٌ وانهدّ ثهلان[2]
أصابها العين في الإسلام فامتحنت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شان مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمصُ وما تحويه من نُزَهٍ ... ونهرها العذب فياضٌ وملآن

(1) انظر: سقوط غرناطة، ص 30.
(2) أحد وثهلان: جبلان.

قواعد كُن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدةٌ ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة ... إن كنت في سِنَةٍ فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يُلهيه موطنه ... أبَعْدَ حمصٍ تغر المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهر نسيان
يا أيها البيضاء رايتُه ... أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا
يا راكبين عتاق الخيل ضامرةً ... كأنها في مجال السّبق عُقبانُ
وحاملين سيوف الهند مرهفةً ... كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعَةٍ ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم رُكبانُ
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرى فما يهتز إنسانُ
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيات لها هِمَمٌ ... أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهمُ من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهمُ ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رُبَّ أُمٍّ وطفلٍ حيل بينهما ... كما تَفَرَّقُ أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودُها العلج للمكروه مُكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ ... إن كان في القلب إسلام وإيمان[1]

«وكان لابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مؤلماً، فقد كان يقف إلى

(1) نفح الطيب (4/ 486، 487، 488).

جانب أعداء أمته ودينه، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادي والأدبي، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية - قد أيقنوا بانهيار سلطان الإسلام في الأندلس - يهرعون إلى احتذاء مثاله، وإلى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة»[1].

لقد غدر النصارى بحليفهم محمد بن يوسف الأحمر، فغزوا أراضيه وشنوا عليه الحرب، فتغيرت حساباته وطمع إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ودمج ما تبقى من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه، فصانع النصارى، وتجنب الاشتباك معهم، فشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه يفطر حزناً وأسى[2].

واستطاع هذا الرجل العجيب أن يؤسس دولة في الأندلس في غرناطة في الجنوب الشرقي في الأندلس؛ حاول ابن الأحمر أن يواجه النصارى وخرج عن طاعتهم وأعلن النصارى الحرب عليه في عام 660هـ / 1261م، فردهم بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدوة المغربية، وهذا أول انتصار كبير منذ انهيار الموحدين. وفي عام 662 هـ استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن إدريس فتح مدينة شريش وتخليصها من يد النصارى.

شدد النصارى هجماتهم بدءاً من عام 663هـ وبدأت الهزائم تتلاحق على محمد ابن يوسف بن الأحمر على يد (دون نوينو دي لارا) صهر ملك قشتالة، فبايع ابن الأحمر المستنصر صاحب تونس فبعث المستنصر لابن الأحمر هدية وعوناً، ولكنها لم تجد نفعاً، فسوء المصير لاح في الأفق، فاضطر ابن الأحمر أن يهادن ملك قشتالة ثانية في أواخر سنة 665هـ / 1267م متنازلاً له عن أكثر من مائة موضع معظمها غربي الأندلس، منها شريش والمدينة والقلعة.

ودخلت غرناطة في حرب داخلية بين ابن الأحمر وبعض أصهاره وهو أبو محمد بن أشقيلولة وكان في مالقة وتحالف ابن الأحمر مع الإسبان عام 665هـ / 1267م وحاصروا أبا محمد بن أشقيلولة في مالقة ولكنهم لم ينالوا منه مأرباً[3].

وفي عام 668هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة الذي بدأ بالجزيرة

(1) انظر: نهاية الأندلس وتاريخ المتنصرين، ص 33.
(2) انظر: المصدر السابق، ص 34.
(3) انظر: مصرع غرناطة، ص 33.

الخضراء خراباً، فطلب ابن الأحمر العون من أمير المسلمين أبي يوسف المريني، ولكنه مات قبل أن يرى ما حدث، وذلك في 29 جمادى الثانية 671هـ (كانون الأول/ ديسمبر 1272م) وقد قارب الثمانين من عمره، بعد أن وطد الملك لبني نصر بقي زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى[1].

أولاً: ترجمة ابن الأحمر:

هو أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خمسين بن نصر بن قيس الخزرجي. يرجع في نسبه إلى سعد بن عُبادة الأنصاري، أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ، وكان نقيباً شهد العقبة وبدراً[2].

ولد محمد بن يوسف في مدينة أرجونة من حصون قرطبة في جهة الشرق سنة 591هـ، (1195م) وهو عام الأرك. كان جندياً وافر العزم والجرأة دعا للم الشمل، فاجتمع حوله الكثير، وكانت بيعته لمملكة غرناطة يوم الجمعة 26 رمضان سنة 635هـ[3].

أ - شيء من سيرته:

كان في أوقات السلم ينصرف إلى شئون مملكته، فكانت له سلسلة من الأعمال المجيدة. نظم الشرطة والقضاء، وطبق القوانين العادلة التي وضعها الفقهاء، فشعر الضعيف بالحماية والطمأنينة بعدما فتح السلطان أبوابه لأصحاب المطالب لتلقي المظالم، فكان قريباً من شعبه. ويروي المؤرخون أنه كان يتوخى البساطة في المأكل والملبس فيبدو في مظهره الخارجي كسائر الناس[4]. يقول فيه لسان الدين بن الخطيب: «كان هذا السلطان آية في السذاجة والسلامة، عظيم التجلد رافضاً للدعة والراحة، مؤثراً التقشف بعيداً من التصنع، شديد الحزم، فظاً في طلب حقه، مباشراً للحرب بنفسه يلبس الخشن ويؤثر التبدي»[5].

وكانت له أوقات يختلي فيها بنفسه ويتمشى في حديقة القصر يتأمل ويفكر

(1) ابن خلدون (7/ 190) نقلاً عن سقوط غرناطة، ص 33.
(2) انظر: التاريخ الأندلسي، ص 517.
(3) انظر: المصدر نفسه، ص 517.
(4) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر، د. يوسف شكري فرحات، ص 31.
(5) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 43.

ويقرأ، وكانت تبدو عليه مسحة من الحزن والكآبة ربما لأنه اضطر إلى محالفة أعداء المسلمين ومعاداة أبناء دينه من العرب والبربر.

من أعمال ابن الأحمر، إلى جانب بنائه القصر المشهور، أنه أنشأ مأوى للعميان وداراً للعجزة، وبنى مستشفى كبيراً ونشر المدارس، وأعد المنازل للغرباء دون تمييز بين الأديان والقوميات، وكان يتفقد رعيته متستراً بعيداً عن مظاهر الأبهة وعظمة الملك[1] «وكان يعقد للناس مجلساً عاماً يومين في كل أسبوع ترتفع إليه الظلامات ويشافهه طلاب الحاجات وينشده الشعراء وتدخل عليه الوفود ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضر به أعيان الحضرة وقضاة الجماعة وأولو الرتب النبيهة»[2]. كما اهتم بالحياة الاقتصادية فأقام المخازن للحبوب وسائر المواد الغذائية، وكانت توزع بأسعار عادلة «فتوفر ماله، وغصت بالصامت خزائنه، فأفعم الأهراء، وملأ بطن الجبل المتصل بمعقله حبوباً مختلفة»[3]. ولما ابتنى قصر الحمراء جلب له المياه التي أوصلها كذلك إلى المدينة، فكثرت البرك والنوافير وسبل المياه والحمامات العامة، ومدّ إلى سهول غرناطة قنوات الري التي ما يزال بعضها قائماً حتى اليوم[4].

لقد نجح هذا السلطان في تأسيس دولة غرناطة في الأندلس وكان لقيام هذه الدولة وثباتها عدة أسباب منها:

1 - موقعها الجغرافي، حيث كانت في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية التي قد تبدو منقطعة، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال فكانت مملكة غرناطة أبعد مكان بالنسبة لمدن الأندلس للوقوع في يد عدو الأندلس من حيث الموقع ومن حيث قربها من بلاد المغرب وعدم وجود خط معاد أمام مسلمي غرناطة، يقف حائلاً دون إعانة المغاربة في الشمال الإفريقي لإخوانهم في الدين والعقيدة.

2 - ظهور دولة بني مرين في المغرب وكان من أهدافها الكبرى مواصلة الجهاد في الأندلس، ولذلك لم تبخل بالوقوف بكل ما تملك من جهد لدعم مملكة غرناطة ضد النصارى في الأندلس، فقامت دولة بني مرين بالمرابطة والجهاد مع مسلمي الأندلس، فكان لهذا العمل الجليل أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس.

---

(1) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر، د. يوسف شكري فرحات، ص 32.
(2) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 44.
(3) المصدر السابق، ص 43.
(4) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر، د. يوسف شكري، ص 32.

3 - هجرة المسلمين في الأندلس من مدنهم التي سقطت إلى مملكة غرناطة وأصبحت لهم ملاذاً يحتمون به ويلجئون إليه، فكثر في غرناطة أهل المهارات والكفايات والذين برعوا في كل الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية، فأضافت إلى قوات غرناطة قوات أخرى تتطلع إلى أن تعيش عزيزة أبية وتصنع حضارة منبثقة من دينها وعقيدتها وتصورها وفكرها[1].

4 - حب الجهاد في سبيل الله تعالى فجر طاقات المجتمع الغرناطي المتطلع للصمود أمام الغزاة النصارى، لقد كان للعقيدة الإسلامية والمعاني الإيمانية أثراً مباشراً في بقاء تلك الدول الصغيرة وصمودها وجهادها أمام ممالك النصارى الحاقدة.

5 - براعة حكام غرناطة في الاستفادة من الصراع بين ممالك النصارى وتقوية النزاعات بينها والتدخل في هذه النزاعات ومناصرة فريق على فريق آخر[2].

وغير ذلك من الأسباب.

ثانياً: جهاد المرينيين في الأندلس:

تولى الملك في مملكة غرناطة بعد وفاة أبي عبد الله الغالب بالله، ابنه محمد الذي اتصف بخلال حسنة من القوة والعزم وبعد الهمة، وسعة الأفق، مع علم وأدب، وكان شاعراً فقيهاً، حتى أنه دعي باسم (محمد الفقيه)، وفي أول عهده تحركت قوات نصارى قشتالة بقيادة ألفونسو العاشر للقضاء على غرناطة وضمها تحت مملكة قشتالة، فاتجهت أنظار المسلمين في غرناطة إلى نصرة المرينيين في المغرب، فأرسلوا إليهم طالبين منهم الغوث والنجدة والمدد وتوالت الكتب على سلطان المغرب «أبي يوسف يعقوب المريني من أهالي غرناطة يستنصرونه ويستدعونه إلى الجهاد، فخرج أبو يوسف من مدينة فاس ملبياً دعوتهم، وقاصداً نصرتهم، في النصف من شهر رمضان المعظم سنة 673هـ فسار حتى نزل مدينة طنجة، فكتب منها إلى الفقيه أبي القاسم العز في صاحب سبتة يأمره بعمارة الأجفان[3] الغزواتية حتى يركبها المسلمون المجاهدون لتسير بهم نحو الأندلس، ثم دعا ابنه أبا زيان وجعله على رأس خمسة آلاف من خيرة المجاهدين وأعطاه مالاً وبنوداً وطبولاً وجهزه بكل ما يحتاج إليه، ثم عقد له لواء

(1) انظر: التاريخ الأندلسي، ص 521، 522.

(2) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عبادة كحيلة، ص 269.

(3) أي ببناء السفن.

الجهاد، وأوصاه بتقوى الله في سره وجهره، ودعا له ووجهه، وانصرف الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز، فركب الأمير مع جميع جيوشه من قصر المجاز، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس، وكان جوازه في 17 ذي الحجة 673هـ، فأقام أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيل من هول البحر، ثم قصد منها الجزيرة الخضراء فغنمها وواصل السير في بلاد العدو حتى وصل إلى شريش، وهو يغنم ويفتح ما مر عليه من القرى والحصون والبروج، وتهاوت مقاومة الإسبان أمام جيشه المظفر، وجمع في طريقه غنائم ضخمة، وقفل بها إلى الجزيرة فدخلها، ففرح أهلها بدخوله، وارتفعت معنوياتهم وقويت نفوسهم وهكذا استطاع الأمير أبو زيان - حامل راية والده المنصور - أن يعز الإسلام ويذل النصارى الحاقدين في الأندلس.

وكانت غزوة أبي زيان غزوة ريادة واستطلاع، وعزم أبو يوسف يعقوب سلطان المرينيين على العبور بنفسه مع جيشه، فبعث سفارة يتزعمها حفيده تاشفين بن الأمير أبي مالك إلى يعمراس بن زيان أمير تلمسان يطلب منه الصلح والألفة واجتماع الكلمة لكي يجاهد في الأندلس وهو مطمئن على بلاده آمن عليها، فوافق يعمراس على مبدأ الصلح فتم الصلح بين بني مرين وبني زيان (بني عبد الواد) وأبعد الله عنهم التحاسد والتنافس والاقتتال وجمع الله كلمة الإسلام وألف بين المسلمين.

وسر أمير المسلمين أبو يوسف بذلك سروراً عظيماً، وتصدق بصدقات كثيرة، وكتب إلى زعماء بني مرين، وأمراء العرب، وشيوخ قبائل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وجاناته يستفزهم إلى الجهاد ثم ارتحل إلى قصر المجاز 674هـ وأخذ في إرسال المجاهدين إلى الأندلس بالخيل العتاق، والعُدة الكاملة والسلاح، فكان يبعث كل يوم قبيلة من بني مرين وطوائف من المطوعين وقبائل العرب، فلما فرغ من إرسال بني مرين والعرب أخذ في إرسال أجناده، فكان الناس يجوزون فوجاً بعد فوج، وقبيلة بعد قبيلة، فكانت السفن والمراكب غاديات ورائحات آناء الليل وأطراف النهار، من قصر المجاز إلى طريف يزدحمون في ذلك المعبر.

قال الشاعر:

فالمرسلات تسوق العاديات إلى ... غزو العداة وتجويز صباح مسا

كأنما البحر أضحى للجياد مدى ... وكُل عُشبة ماء حُوّلت فرسا

كـأنـمـا اقـتـرب الـبـرّان واتـصـلا فـصـار ذاك طـريـقـاً لـلـورى يـبـسـا[1]

فلما وصلت عساكر المسلمين بلاد الأندلس انتشرت بين مدينة طريف إلى الجزيرة الخضرة، جاز أمير المسلمين أبو يوسف في آخرهم في خاصته ووزرائه وخُدام دولته، ومعه جماعة من صلحاء المغرب، وكان جوازه يوم الخميس 21 صفر 674هـ وفي الأندلس تلقاه ابن الأحمر والرؤساء من بني أشقيلولة بعساكرهما، واهتزت الأندلس فرحاً وسروراً واستبشاراً بقدومه.

وكان بين محمد الفقيه ابن الأحمر وبين أشقيلولة منافسة ومخاصمة وشحناء، فعمل أبو يوسف على إزالتها وأصلح بينهما، و تصافت القلوب وتعاهدوا على التقوى والجهاد ورجع محمد الفقيه إلى غرناطة لترتيب أمورها وسار بنو أشقيلولة إلى مالقة، ومضى المجاهد أبو يوسف بجيشه الجرار قاصداً جهاد النصارى، ولم يعقد، ولم يبال أو يكترث بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلف، ولم تستطب جفونه مناماً، ولم يلتذ شراباً ولا طعاماً، ولم يزل يجد الرحيل، ويوالي المسير، حتى وصل إلى الوادي الكبير، فعقد هنالك لولده الأمير أبي يعقوب يوسف على مقدمته وقدمه بين يديه مع الأدلاء في جيش من خمسة آلاف فارس من شجعان بني مرين والعرب، فتقدم والده بمرحلة، وسار أبو يوسف في إثر ابنه في جميع جيوشه، فانتشرت عساكر المجاهدين في أرض الإسبان، ووصل إلى حصن المقورة ما بين قرطبة وإشبيلية ودخل (بلمه) عنوة بالسيف، ثم سار إلى أحواز قرطبة ثم إلى إستجة.

ووصلت الأخبار إلى أبي يوسف بتحرك حشود النصارى بقيادة (دونونة) في جيش كبير في ثلاثين ألف فارس، وستين ألف راجل قاصدين هزيمة جيش المسلمين وأخذ ما في أيديهم من الغنائم[2].

أ - مجلس الشورى الحربي:

عقد أمير المسلمين أبو يعقوب مجلس شورى من قادة الأندلس وأشياخ قبائل مرين، وأمراء العرب، ومن في عسكره من الفقهاء والعلماء، ليشاورهم كيف يكون العمل في لقاء العدو المقبل إليهم وسمع أبو يوسف آراء الجميع، وأخذ أجودها،

(1) انظر: مصرع غرناطة، ص 43.

(2) انظر: مصرع غرناطة، ص 45.

وأمرهم بالاستعداد للقاء العدو، والصبر والثبات عند اللقاء والتطلع إلى معية الله وما عنده من الأجر والمثوبة للمجاهدين في سبيله وبينما هم كذلك إذ نظر الناس إلى طلائع النصارى قد أقبلت نحوهم على بعد والرجال أمام الخيل «ودونونه» في وسط الجيش، وكان ملك قشتالة حزمه بيده، وزوجه ابنته، وفوضه على جيوشه وحروبه، وفوض إليه الأمر في جميع بلاده وجنوده، وكان النصارى قد سعدوا به؛ لأنه كان لم ينهزم قط، وكان وبالاً ودماراً ومصيبة على بلاد الإسلام، شديد الانتقام، ولا يمل من القتل وسفك الدماء وسبي نساء المسلمين في كل الأوقات، فأقبل في كبريائه وغروره تحت ظلال البنود وأصوات الأبواق تخفق على رأسه في جيش قد ملأ الأرض يموج كأنه الجراد، والرجال والرماة أمام الجيش كلهم قد شرعوا الحراب[1] معتمدين على الكثرة ووفرة العدد.

ب - ترتيب أبي يوسف لجيشه:

أمر أمير المسلمين أبو يوسف بالغنائم فبعث بها مع ألف فارس وألف راجل من المجاهدين المطوعين إلى الجنوب بعيداً عن أرض المعركة، وتأخر هو ومن بقي معه من المسلمين مستعدين لقتال النصارى، ثم ترجل عن جواده فأسبغ وضوءه، وصلى ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمنون على دعائه فكان في آخر دعائه ما دعا به النبي ﷺ يوم بدر للصحابة «اللهم انصر هذه العصابة وأيدها وأعنها على جهاد عدوك وعدوها» فأجاب الله تعالى دعاءه ورحم تضرعه وابتهاله، فلما فرغ من دعائه قام فاستوى على جواده، واستعد للقتال وجلاده، وعقد لولده الأمير الأجل يوسف على مقدمته، ونادى على المسلمين فقال: «يا معشر المسلمين، وعصابة المجاهدين، أنتم أنصار الدين، الذابّون على حماه والمقاتلون عداه، وهذا يوم عظيم، ومشهد جسيم، له ما بعده، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها، وجدّوا في طلابها، وابذلوا النفوس في أثمانها، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111] فاغتنموا هذه التجارة الرابحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة، وقتال المشركين الفجرة، فمن مات منكم مات شهيداً ومن عاش منكم رجع إلى أهله سالماً غانماً

(1) انظر: مصرع غرناطة، ص 46.

مأجوراً حميداً، ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]» فلما سمعوا منه هذه المقالة ، تاقت أنفسهم للشهادة، وعانق بعضهم بعضاً للوداع، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع، وكلهم طابت نفسه بالموت، وباعها من ربه بالجنة قبل الفوت، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير، وكلهم يقول عباد الله إياكم والتقصير، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحي القيوم»[1].

فالتقى الجمعان والتحم القتال، واشتد النزال، وعظمت الأهوال، وقسم (دونونة) جيوشه إلى خمسة أجزاء، ليظهروا جموعاً متكاثرة، فكانت تقبل بجموعها، فيدفعهم المسلمون، وتتلقاهم سيوف المجاهدين، وحرابهم، وقلوب المجاهدين أثبت من الجبال الرواسي في ساحات الوغى وسيوفهم تحصد رقاب الإسبان، وقتل زعيم الإسبان (دونونة) كما قتل ولده وهزم جيشه وتكسرت أعلامه[2].

لقد استطاعت الجيوش الإسلامية المتحدة بين المغاربة والأندلسيين بقيادة أبي يوسف يعقوب أن تحقق نصراً حاسماً في هذه المعركة التي أعادت ذكريات الزلاقة في زمن المرابطين، وذكريات معركة الأرك في زمن أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي، وبعد انتهاء المعركة رجع السلطان المريني منصوراً إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضي قشتالة، وحاصر إشبيلية العاصمة التي طلبت الأمان والصلح فأجابهم وعاد إلى الجزيرة الخضراء عبر البحر إلى المغرب في أواخر رجب سنة 674هـ، بعد أن قضى حوالي خمسة شهور في الأندلس، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم[3].

لقد كانت المعركة التي انتصر فيها السلطان المريني على الإسبان قرب إستاجة وظهرت ملكات أبي يوسف يعقوب المريني القيادية في النقاط التالية:

1 - الاهتمام بعنصر الاستطلاع حتى لا يفاجئه العدو ولذلك عقد لواءً لابنه أبي يعقوب ليقدم جيش المسلمين لمراحل ثم يكون هو على إثره.

2 - إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة حتى لا ينشغل بها المجاهدون وحتى

(1) انظر: التاريخ الأندلسي ص 538 عن الذخيرة السنية، ص 149 -150.
(2) انظر: سقوط غرناطة، ص 48.
(3) انظر: التاريخ الأندلسي، ص 538.

يتفرغوا لمجاهدة عدوهم، وبذلك تحاشى الخطأ الذي وقع فيه المسلمون في معركة بلاط الشهداء، وهذا يدل على نظر عميق في التاريخ واستخراج الدروس والعبر من صفحاته الماضية.

3 - صدق السلطان المريني في خطبته لجنوده والتي ألهب فيها المشاعر وحرك بواعث الفداء، ورغبهم في الشهادة، فرفعت تلك الخطبة الصادقة معنويات جند المسلمين، فجاهدوا صابرين محتسبين، طالبين للشهادة على الرغم من أن عدوهم أقبل عليهم بقوة فتية وقيادة مجربة لم تعرف الهزيمة ومهرت في الحروب وخططها.

4 - باشر الأمير المريني في هذه المعركة القتال بنفسه، وقتل عدداً من الإسبان بيده، وهذا يذكرنا بيوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور الموحدي، اللذين صنعا نصر الزلاقة ونصر الأرك العظيمين.

5 - أرسل أبو يوسف أعلام النصارى المنكسة إلى أعلى منار (القرويين) ومنار جامع الكتبيين بمراكش ليعاينها المسلمون ولترتفع معنوياتهم وتتحطم هيبة النصارى من نفوسهم[1].

لقد اهتز العالم الإسلامي فرحاً وسروراً بهذه الأخبار السارة، فتحركت قرائح الشعراء لتمجيد ذلك العمل العظيم، حيث أرسل ابن أشقيلولة كتاباً للتهنئة إلى السلطان المريني وفيه قصيدة من أبياتها:

هبت بنصركُمُ الرياح الأربعُ ... وسرت بسعدكُمُ النجوم الطُلّعُ
وأتت لنصركم الملائكُ سُبقاً ... حتى أضاق بها الفضاء الأوسعُ
واستبشر الفلكُ الأثير تيقناً ... أن الأمور إلى مرادك ترجع[2]
وأمدّك الرحمن بالفتح الذي ... ملأ البسيطة نوره المتشعشع
لم لا؟ وأنت بذلت في مرضاته ... نفساً تُفدّيها الخلائق أجمعُ
وأتيت تنصر دينه متوكلاً ... بعزيمة كالسيف بل هي أقطع
أين المفر ولا فرار لهارب ... والأرض تنشر في يديك وتجمع
فلقد كسوت الدين عزًّا شامخاً ... ولبست منه أنت ما لا يُخلع

(1) انظر: سقوط غرناطة، ص 50.

(2) إن الأمور مرادها ومرجعها إلى الله تعالى.

إن قيل من خير الملوك بأسرها فإليك يا يعقوب تومي الأصبعُ[1].

ج - الغزوة الثانية:

عبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس للمرة الثانية سنة 677هـ / 1278م، وتوغل بجيشه في أراضي قشتالة إلا أن النصارى استطاعوا أن يصانعوا ابن الأحمر زعيم غرناطة وأن يكسبوه لجانبهم ودخل معهم في أحلاف ضرت بالمسلمين واضطر سلطان المرينيين أن يرجع إلى المغرب بجيشه واستمر ابن الأحمر في تصرفاته الشاذة، وعقد تحالفاً مع ملك قشتالة، فسارا إلى أقصى الجنوب لاحتلال (طريف) مدخل الأندلس كلها، واشترط ابن الأحمر على ملك قشتالة أن يسلمه ثغر طريف.

واستطاعت طريف أن تصمد أربعة أشهر إلا أنها اضطرت للخضوع والاستسلام فطالب بها ابن الأحمر ملك قشتالة، فامتنع عن تسليمها، مع أن ابن الأحمر تنازل له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة، فأدرك ملك غرناطة محمد الفقيه ابن الأحمر عندئذ خطأه الفاحش والمزلق الخطير في الركون إلى وعود ملك قشتالة، وفي مغاضبة المرينيين حلفائه الطبيعيين، وإخوانه في الدين والمنهج والتصور والاعتقاد، فعاد يخطب ودّهم من جديد[2] فأرسل الوفود من أجل الصلح مع المرينيين واعتذر عن مسلكه في شأن طريف، وأجابهم السلطان أبو يوسف المريني إلى طلبهم وبقي ملك غرناطة على عهده مع المرينيين حتى توفي - محمد الفقيه - في شعبان سنة 701هـ/ أيار (مايو) 1302م بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة[3].

ومما يذكر أن أبا يوسف المنصور أرسل ابنه الأمير أبا يعقوب في أسطول مريني ضخم في أوائل سنة 678هـ 1279م، وانتصر على الأسطول القشتالي وحرر الجزيرة الخضراء. ولما تم الصلح مع ابن الأحمر أصبحت مالقة قاعدة لبني مرين ومحطة لعبور جندهم إلى الأندلس للجهاد.

عبر أبو يوسف المنصور - عبوره الرابع - في صفر سنة 684هـ إلى الأندلس،

(1) انظر: مصرع غرناطة، ص 51.
(2) انظر: مصرع غرناطة، ص 53.
(3) المصدر السابق نفسه.

وجاهد في البر والبحر، وأرغم شانجة الرابع ملك قشتالة على طلب السلم، فأرسل شانجة وفداً من الأحبار يفاوض السلطان المريني على ما يراه ووضعت شروط أهمها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس[1].

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة 685هـ / 1285م، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس.

هذه نبذة مختصرة عن حياته تغمده الله عز وجل برحمته:

كان رحمه الله صواماً قواماً، دائم الذكر، كثير الفكر، لا يزال في أكثر نهاره ذاكراً، وفي أكثر ليله قائماً يصلي، وسبحته في يده لا يزايلها أكثر أوقاته، مكرماً للصالحين، كثير الرأفة والحنين على الضعفاء والمساكين، متواضعاً في ذات الله تعالى لأهل الدين، متوقفاً في سفك الدماء، كريماً جواداً، وكان مظفراً منصور الراية، ميمون النقيبة، لم تهزم له راية قط، ولم يكسر له جيش، ولم يغز قط عدواً إلا قهره، ولا لقي جيشاً إلا هزمه ودمره، ولا قصد بلداً إلا فتحه[2].

ولا ننسى أنه كان خطيباً يؤثر في نفوس جنده، شجاعاً مقداماً يبدأ الحرب بنفسه عليه رحمة الله.

لقد كان من صنف يوسف بن تاشفين، وأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي[3].

قال عنه ابن كثير في وفيات عام 685هـ: «أبو يوسف المريني سلطان بلاد المغرب، خرج على الواثق بالله أبي دبوس فسلبه الملك بنظام مراكش، واستحوذ على بلاد الأندلس والجزيرة الخضراء، في سنة ثمان وستين وستمائة واستمرت أيامه إلى محرم هذه السنة، وزالت على يديه دولة الموحدين بها»[4].

د - مشيخة الغزاة:

نتيجة للمصالح المشتركة بين بني مرين وبني الأحمر ملوك غرناطة استطاعوا أن

(1) انظر: التاريخ الأندلسي، ص 540.
(2) انظر: مصرع غرناطة، ص 55.
(3) انظر: المصدر السابق نفسه.
(4) البداية والنهاية (13/ 327).

يصلوا إلى نتائج حسنة ومهمة للتعاون المشترك والتنسيق العريض لرد الخطر النصراني القادم من مملكة قشتالة، ولذلك رأت القيادتان المرينية والغرناطية ضرورة وضع قوات من المجاهدين في الأندلس للإقامة فيها، ليكونوا على أهبة الاستعداد من أجل الجهاد والدفاع عن مسلمي الأندلس، فظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس بمشيخة الغزاة وهذا تعريف أطلق على الجنود المرابطين للذود عن العقيدة وأطلق اسم زعيمها شيخ الغزاة.

وتزعم بنو العلاء (من أقارب السلطان المريني) قيادة المشيخة، وهو منصب عسكري تولى رياسة المشيخة عبد الله بن أبي العلاء حتى استشهد سنة 693هـ، فكانت لأخيه أبي سعيد عثمان بن العلاء[1].

عن هذه المشيخة يذكر المقري في نفح الطيب أنه «لم يزل ملوك بن مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غُزاة فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة، ومواقف مشهورة، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة، عليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة»[2].

توفي محمد (الثاني) الفقيه سنة 701هـ (1301م) فخلفه ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع الذي خلع سنة 708هـ ليتولى الحكم أخوه نصر وبويع يوم الجمعة غرة شوال عام 708هـ.

وكان مجبولاً على طلب الهدنة محباً للعلم وأهله يخط التقاويم الصحيحة، ويصنع بيده الآلات الطريفة، نازل طاغية قشتالة على الجزيرة الخضراء، وطاغية أراغون في ثغر المرية، فهزم النصارى في المرية، وانتصروا عليه في الجزيرة الخضراء حيث سقط جبل طارق في أيديهم بعد حصار طويل مضن دام حتى آخر سنة 709هـ.

وفي عهد أخيه، ثم عهده حصل جفاءٌ وعداءٌ بينه وبين بني مرين حكام المغرب بواسطة جواسيس النصارى المندسين بين المسلمين، واستغل النصارى ذلك التنافر، فشددوا على مملكة غرناطة الخناق، فاضطر السلطان نصر بن محمد إلى دفع الجزيرة لهم فثار الشعب في وجهه، وكان أن خلع سنة 713هـ ورشح الخارجون عليه للملك

(1) انظر: التاريخ الأندلسي، ص 540.

(2) نفح الطيب (4/ 385) نقلاً عن التاريخ الأندلسي، ص 540.

بدلاً عنه: أبا الوليد إسماعيل بن فرج، وحفيد إسماعيل بن يوسف أخي محمد يوسف رأس الأسرة النصرية، ومؤسس دولتها[1].

* * *

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 249].

امتاز عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل بتوطيد الملك، واستقرار الأمور وإحياء عهد الجهاد، وحاول الاستنجاد ببني مرين المغاربة على أعدائه النصارى، لكنهم نكلوا عن معاونتهم، بسبب سوء تصرفات سابقيه ضدهم[2].

في أوائل عهده غزا القشتاليون غرناطة وكان من ضمن القشتاليين جيش السلطان المخلوع، فهزموا المسلمين هزيمة شديدة في وادي فرتونة سنة 716هـ واستولى النصارى على بعض القواعد والحصون[3].

وفي سنة تسع عشرة وسبعمائة ألّب ملوك النصارى على غرناطة، وجاءها (دون بطرة) في جيش لا يحصى كثرةً، وكان وصياً على الملك الصبي ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة، ومعه خمسة وعشرون ملكاً أو أميراً بغرض استئصال ما بقي من المسلمين بالأندلس، وكانت حملة قد باركها مرجعهم الكنسي (البابا) في طليطلة[4] وكان من ضمن هذا الجيش فرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزي[5].

كان عدد الجيش الإسلامي حوالي ستة آلاف، منهم ألف وخمسمائة فارس والباقي رجّالة. لكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء[6]، وبعد أن يئس المسلمون من نصرة إخوانهم المغاربة، لجئوا إلى الله تعالى. ودارت المعركة رغم التفاوت الكبير بين الجيشين، وكان نصراً عزيزاً للمسلمين، ويوماً مشهوداً. زاد عدد القتلى في هذه المعركة على خمسين ألفاً، وبلغ جملة السبي فقط سبعة آلاف نفس، وهلك الأمراء النصارى جميعهم، واستمر البيع في الأسرى،

(1) انظر: الأعلام للزركلي (8/ 28).
(2) انظر: نهاية الأندلس، ص 117.
(3)، (4) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير لعلي الزبيري (1/ 56).
(5) التاريخ الأندلسي، ص 541، 542.
(6) المصدر السابق، ص 542.

والأسلاب والدواب ستة أشهر، وإنه لنصر ما كان يؤمل لولا لطف الله بعباده لما رأى صدق توجههم إليه[1].

لقد كان السلطان أبو الوليد إسماعيل هذا من خيرة سلاطين بني الأحمر وأصلحهم فمما وصف به: «كان حسن الخُلُق، سليم الصدر، كثير الحياء، صحيح العقل، ثبتاً في المواقف، عفيف الإزار، ناشئاً في حجرة الطهارة بعيداً عن الصبوة، بريًّا من المعاقرة»[2].

وفي سنة 724هـ زحف السلطان إسماعيل على مدينة بياسة الحصينة، وحاصرها بشدة، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى استسلمت المدينة، ونزل أهلها على حكمه[3].

وفي رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة دخل مرتش الحصينة التي تقع في جنوب غربي جيان عنوة، وكانت من أعظم غزواته، وامتلأت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم، وعاد إلى غرناطة مكللاً بالنصر[4].

لكنه ما لبث سوى ثلاثة أيام حتى قُتل بباب قصره غيلة من قبل ابن عم له تربص به، وطعنه بخنجر له، وهو بين وزرائه وحشمه، فحمل جريحاً وتُوفي على إثر ذلك في اليوم التالي، رحمه الله وتقبل شهادته[5].

وفي عام 733هـ استطاع الغرناطيون في زمن السلطان محمد الرابع تخليص جبل الفتح - أي جبل طارق - من أيدي النصارى بعد أن ظل تحت سلطانهم من عام 709هـ وكان للسلطان أبي الحسن علي بن عثمان المريني سلطان المغرب دور يشكر عليه في تخليص جبل طارق الذي كان ذا أهمية بالغة بالنسبة للأندلسيين، إذ هو همزة الوصل بينهم وبين إخوانهم في العدوة المغربية[6].

---

(1) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (1/ 57) بتصرف.

(2) الإحاطة (1/ 377) وقوله: بريئاً من المعاقرة أي بعيداً عن شرب الخمر.

(3)، (4) انظر: نهاية الأندلس، ص 120.

(5) المصدر السابق، ص 121.

(6) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (1/ 59).

هـ - موقعة طريف:

وقد تجلى تحالف ملك المغرب مع ملك غرناطة مرة أخرى في المعركة التي أصيب فيها الملكان بهزيمة فادحة في معركة طريف سنة 741هـ من قبل النصارى.

منذ أن استعاد الأندلسيون سنة 733هـ بمساعدة بني مرين - حكام المغرب - جبل طارق بعد أن ظل بأيدي النصارى أربعة وعشرين عاماً - إذ سقط في أيدي النصارى سنة 709هـ - توطدت العلاقة أكثر فأكثر بين بني الأحمر من جهة وبني مرين من جهة أخرى.

وكان الأندلسيون كلما أحسوا بخطر النصارى يحدق بهم سارعوا إلى الاستنجاد بإخوتهم في الدين في العدوة المغربية من بني مرين، وكانوا يقومون بالدور الذي كان ينوم به المرابطون والموحدون من الجهاد في أرض الأندلس.

وفي عهد أبي الحجاج يوسف [ولايته 733 - 755هـ] كثرت غزوات النصارى لأراضي المسلمين وكان ألفونسو الحادي عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة فكان أن استنجد أبو الحجاج بأبي الحسن سلطان المرينيين، الذي أرسل ابنه أبا مالك إلى الأندلس، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهاد، فاجتاح أراضي النصارى وحصل على غنائم لا تحصى غير أن النصارى من قشتالة وأراغوان والبرتغال كوّنوا أسطولاً بحرياً متحداً ليستقر بالمضيق فيمنع الإمداد عن جيوش المغرب، وسارت قوى النصارى المتحدة للقاء المسلمين وبارك البابا هذه الحملة، فباغتوا أبا مالك عند عودته بالوادي الذي كان يقع بين حدود النصارى وأرض المسلمين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها أبو مالك، وهزم جيشه هزيمة منكرة، وبلغ أبا الحسن المريني الخبر، فاحتسب عند الله ابنه وشرع في الجهاد من جديد على إثر هذه المعركة. تجهز السلطان أبو الحسن واستنفر معه أهل المغرب فتوافت أساطيل المغاربة بمرسى سبتة تناهز المائة فأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق (مضيق جبل طارق) ليمنع السلطان من الجوار إلى الأندلس فوقعت معركة بحرية عظيمة أظفر الله المسلمين فيها بعدوّهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبراً بالسيوف، وطعناً بالرماح، وألقوا أشلاءهم في اليم، وقتلوا قائدهم، واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة[1]. ثم بعد أن جلس السلطان للتهنئة وأنشدت الشعراء بين يديه، استأنف إجازة العساكر فانتظمت

(1) انظر: ابن خلدون (7/ 261) نقلاً عن ابن جزي ومنهجه في التفسير (1/ 72).

الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة، ونزل السلطان بعساكره بساحة طريف وأناخ بها ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج بعساكر الأندلس، وأحاطوا بطريف وأنزلوا لها أنواع القتل ونصبوا عليها الآلات.

غير أن الطاغية جهّز أسطولاً آخر اعترض به المضيق لقطع المرافق والمؤن عن المعسكر، وطال ثواء المسلمين بمكانهم من حصار البلد، ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات فوهن الظفر، واختلت أحوال المعسكر، وحشد الطاغية أمم النصرانية، وظاهرة البرتغاليون وبالرغم مما قيل من أن جيش المسلمين كان زهاء ستين ألفاً، فإن طول محاصرتهم للبلد وانقطاع المؤن عنهم من أول المحرم سنة 741هـ وإلى أوائل شهر جمادى الأولى من نفس العام، ثم المكيدة التي دبرها لهم أعداؤهم وعدم تلافيها كان وراء انكسار شوكتهم[1]. وهذه المكيدة كما يصفها ابن خلدون تتلخص فيما يأتي: «ولما قرب معسكرهم سرّب الطاغية إلى طريف جيشاً من النصارى أكمنه بها، فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس المسلمين، الذين أرصدوا لهم غير أنهم أحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مراصدهم، وأدركوا أعاقبهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عدداً ولبّسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم. وتولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس، ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا لحراسته فاستلحموهم، ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهن، وخلصوا إلى حظايا السلطان فقتلوهن، واستلبوهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر ناراً وأحسّ المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به، وتقبضوا عليه وولّى السلطان متحيزاً إلى فئة من المسلمين واستشهد كثير من المسلمين من سادتهم وقادتهم[2].

وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب[3] يقول المقري في وصف هذه الفاجعة:

---

(1) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (1/ 73).

(2) انظر: العبر لابن خلدون (7/ 261، 262) نقلاً عن ابن جزي (1/ 74).

(3) انظر: نهاية الأندلس، ص 128.

«فقضى الله الذي لا مرد لما قدّره أن صارت تلك الجموع مكسرة ورجع السلطان أبو الحسن مغلولاً وأضحى حسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولاً.. وقتل جمع من أهل الإسلام ولمّة وافرة من الأعلام.. واشرأبّ العدو والكافر لأخذ ما بقي من الجزيرة ذات الظل الوريف، وثبت قدمه إذ ذاك في بلد طريف، وبالجملة فهذه الموقعة من الدواهي المعضلة الداء، والأرزاء التي تضعضع لها ركن الدين بالمغرب، وقرّت بذلك عيون الأعداء»[1].

ويرى الأستاذ نجيب زبيب اللبناني أن هزيمة المرينيين كانت بسبب الخيانة والعمل الاستخباراتي الذي قامت به ممالك النصارى، ويرى أن حكام غرناطة كانوا ينجسسون لصالح النصارى: «فالقشتاليون على سبيل المثال اتخذوا من حكام غرناطة جواسيس لهم في جميع أنحاء المغرب. وفي المناطق المنفصلة عنه مثل المغرب الأوسط وإفريقية، وكان بنو زيان في تلمسان والحفصيون في المغرب الأوسط على اتصال مستمر مع حكام غرناطة، ينقلون إليهم كل المعلومات المستجدة عن الدولة المرينية، حتى أنهم صاروا يقومون بدور مخلب القط للقشتاليين فكل المعلومات التي كانت ترد إليهم من الحفصيين والزيانيين كانوا يقدمونها إلى القشتاليين.

وكثيراً ما حث القشتاليون حكام غرناطة على طلب النجدة من المرينيين للإيقاع بلجيوش المرينية وأساطيلها في المكائد والشراك المنصوبة..»[2].

ولا شك أن العمل الاستخباراتي من الأعمال التي تدمر الأمم إذا لم يكن لها عمل مضاد ضد مخططات الأعداء؛ بل إن نجاح الدول في تحقيق أهدافها منوط بتحقيق هذا المفصل المهم في بنائها.

و - العلماء الذين سقطوا شهداء في معركة طريف:

1 - أبو محمد عبد الله بن سعيد السلماني، والد الوزير الغرناطي والأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب.

2 - القاضي أبو عبد الله محمد بن بكر الأشعري المالقي، أحد أشياخ ابن

(1) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير(1/ 74) نقلاً عن نفح الطيب (6/ 317).
(2) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، الأستاذ نجيب زبيب (3/ 81).

الخطيب وصاحب كتاب التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، «كان حسن التخلق عطوفاً على الطلبة محباً للعلم والعلماء مجلاً لأهله مُطرح التصنع عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر عزيز النفس نافذ الحكم صواله معروفاً بنصرة من أزر إليه. تقدم للمشيخة ببلدة مالقة ناظراً في أمور العقد والحل ومصالح الكافة ثم ولي القضاء بها فأعز الخُطة وترك الهوادة ملازماً للقراءة والإقراء محافظاً للأوقات حريصاً على الإفادة. ثم وُلي القضاء والخطابة بغرناطة»[1].

«وتصدر لبثّ العلم بالحضارة يقري فنوناً منه جمة فنفع وخرج ودرس العربية والفقه والأصول وأقرأ القرآن وعلم الفرائض والحساب وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً على سبيل من انشراح الصدر وحسن التجمل وخفض الجناح..»[2].

«واستمر على عمله من الاجتهاد، والرغبة في الجهاد، إلى أن فقد - رحمه الله - في مصاف المسلمين، يوم المناجزة الكبرى بظاهر طريف، شهيداً محرّضاً يشحذ البصائر و (يدمي) الأبطال، ويشير على الأمير من أن يكثر من قول: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

3 - أبو القاسم محمد بن جُزَيّ وهو أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب المؤلفات. كان «فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس، مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، حافظاً للتفسير، مستوعباً للأقوال، جمّاعة للكتب، ملوكي الخزانة، حسن المجلس، ممتع المحاضرة، قريب الغور، صحيح الباطن، تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنه، فاتفق على فضله، وجرى على سنن أصالته»[3].

«فقد وهو يحرض الناس ويشحذ بصائرهم ويثبتهم، يوم الكائنة بطريف..»[4].

وغير ذلك من الفقهاء والعلماء والصلحاء الذين كان همهم نصرة دين الله والموت في سبيل الله تعالى.

---

(1) الإحاطة (2/ 176، 177).

(2) نفس المصدر (2/ 177).

(3) نفح الطيب (5/ 514).

(4) نفس المصدر (5/ 514) نقلاً عن التاريخ الأندلسي، ص 547.

وبعد معركة طريف أصبحت مملكة غرناطة في مدّ وجزر، واعتورتها حالات الحرب والهدنة، والمسالمة والتحالف جنباً مع قشتالة ضد بني مرين، ومع بني مرين ضد قشتالة، أو أراجون حيناً آخر ثم ما لبثت هذه المملكة أن أصابها الهرم، ولحقتها الشيخوخة وأضعفها الانقسام والتناحر الداخلي مع الانغماس في اللذات وفي نفس الوقت ضعفت دولة بني مرين المغربية التي كانت عوناً في كثير من الأحيان لمسلمي الأندلس ضد أعدائهم النصارى وكان زمن سقوط دولة بني مرين 869هـ[1].

واندلعت الحرب الأهلية في داخل غرناطة بسبب النساء حيث إن ملك غرناطة أصبح أسيراً لحب امرأة رومية نصرانية تدعى (ثريا) وأصبح أداة سهلة في يد زوجته الفتية الحسناء وكانت كثيرة الدهاء والأطماع، فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيى ولياً للعهد، وكان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد، وتمكنت ثريا من إقناع زوجها أبي الحسن لإقصاء عائشة وولديها، حتى أقنعته باعتقالهم جميعاً، وفي برج قمارش أمنع أبراج الحمراء زُجت عائشة الحرة مع ولديها، وشدد الحجر عليهم، وعُوملوا بمنتهى الشدة والقسوة وانقسم المجتمع الغرناطي إلى فريقين:

فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيدة غرناطة الحقيقية) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ، وفريق آخر يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرة وولديها).

ولم تستسلم عائشة الحرة إلى واقعها المؤلم، واتصلت سراً بمؤيديها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج، وتمكنت من الهرب من قصر الحمراء في ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة 887هـ / 1482م بمساعدة بعض المؤيدين المخلصين.

وظهرت في وادي آش حيث مجمع أنصار ولدها.

وقرر فرديناند وإزبيلا البدء بالحرب بعد أن سنحت الفرصة، وبعد أن دخلت مملكة غرناطة في صراعها الداخلي وسار القواد القشتاليون إلى جنوب غربي غرناطة إلى مكان اسمه الحمة، لضعف وسائل الدفاع عنها من أجل احتلالها ومن ثم احتلال غرناطة ومالقة معاً، وتم لهم ذلك ولم يستطع أبو الحسن ملك غرناطة استردادها،

(1) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (1/ 74).

ولكنه استطاع أن يدعم أمير مدينة لوشة الواقعة على نهر شنيل شمال ألحامة وعلى مقربة منها وأن يردّا معاً الإسبان في جمادى الأولى 887هـ / تموز (يوليه) 1482م.

وتعاطف الشعب الغرناطي مع الشرعية (عائشة الحرة) واضطر ملك غرناطة أن يترك كرسي الملك وفر إلى مالقة، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل يدفع جيشاً جراراً سيره ملك قشتالة لافتتاحها، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة 887هـ، وعمره 25 سنة وأراد أن يحذو حذو عمه الزغل في الجهاد، وباشر القتال بنفسه وحقق انتصارات على النصارى وانتزع منهم حصوناً وقلاعاً سنة 888هـ نيسان (أبريل) سنة 1483م إلا أنه وقع أسيراً في يد النصارى في إحدى المعارك.

واستطاع فرديناند أن يجعل من أبي عبد الله الصغير وسيلة لتدمير غرناطة من الداخل؛ ولذلك رفض الأموال الطائلة التي عرضت عليه من أجل فك أسره واستغل النصارى قلة خبرة أبي عبد الله الصغير، وانعدام حزمه، وضعف إرادته، وطموحه للحكم.

ولما تولى عرش غرناطة أبو عبد الله الزغل واستطاع أن يرد بكل جرأة وشجاعة وبطولة هجمات النصارى إلا أن الكيد النصراني الحاقد استخدم أسلوب تقوية الفتن الداخلية في غرناطة، وفي أحرج الظروف أطلق فرديناند سراح أبي عبد الله الصغير، بعد أن وقعه على معاهدة أعلن فيها خضوعه وطاعته لملك قشتالة مدتها عامان، وأن تطبق في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبد الله الصغير، وأخذ يبث أبو عبد الله الصغير دعوته في شرق الأندلس، والحرب الأهلية قائمة في غرناطة، وزاد الأمر سوءاً سقوط مدينة لوشة بيد النصارى في أواخر جمادى الأولى 891هـ / أيار مايو 1486م، وكان موقف أبي عبد الله الصغير أثناء هذه الحوادث الجسام مريباً.

فهو ما زال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارى.

وبقي يستظل بمظاهرته للنصارى وبتأييدهم له.

وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه، فهو الورقة الرابحة بيد فرديناند.

ودعم فرديناند أبا عبد الله الصغير ضد عمه وانقسمت غرناطة إلى شطرين وتحقق لفرديناند ما أراده وسعى إليه، فقد تمزقت دولة الإسلام بالأندلس وستمضي بخطوات سريعة نحو دمارها قبل أن ترجع إلى وحدة صفها مرة أخرى.

وشرع فرديناند في محاربة المناطق الشرقية والجنوبية التي تخضع لأبي عبد الله الزغل، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً في جمادى الثانية 892هـ / حزيران (يونيه) 1487م، وخاف الزغل أن يسير إلى إنجادها من وادي آش، خاف غدر ابن أخيه أبي عبد الله الصغير، فاستنجد بسلطان مصر الأشرف قايتباي، ولم يكن من المنتظر أن تقاوم مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة، فسقطت في أواخر شعبان 892هـ/ آب أغسطس 1478م ونكث فرديناند بوعوده التي قطعها لأهل مالقة، فغدر بهم واسترقهم جميعاً، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين.

كانت مصر في تلك الفترة لا تستطيع أن ترسل قواتها إلى الأندلس لأسباب عديدة إلا أن حاكمها المملوكي استعمل الضغط السياسي، فأرسل راهبين لسفارة مصرية مملوكية إلى البابا أنوصان الثامن، وإلى ملوك النصرانية ليبين لهم أن النصارى في بلاد المسلمين في منتهى الأمان والاطمئنان والحرية والحماية، والمسلمون تسفك دماؤهم، وتستحل حرمتهم، وتغزا أراضيهم في الأندلس وتوعد سلطان المماليك فرديناند إن لم يغير خطته وسياسته تجاه غرناطة، وإلا اضطر إلى تغيير سياسته حيال النصارى في بلاد المسلمين كمعاملة بالمثل، استقبل فرديناند السفيرين، ولم يعبأ بوعيد السلطان الأشرف، ولم يغير خطته، ولكنه كتب إليه في أدب المجاملة: «أنهما - فرديناند وزوجته إيزابيلا - لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية»[1].

وفشلت المحاولة الدبلوماسية، وتركت غرناطة تلاقي قضاءها المحتوم، ولم ينفذ السلطان تهديده فلم يضطهد أحداً؛ لأن الإسلام لا يجيز له ذلك. وأخذت المدن تتساقط تباعاً بيد فرديناند، فسقطت المرية في عام 895هـ / 1490م واستسلمت بشروط هي أنموذج لشروط سقوط باقي القواعد الإسلامية وأهمها:

1 - أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم.

2 - تخفف عنهم أعباء الضرائب.

(1) نهاية الأندلس وتاريخ المتنصرين، ص 369.

3 - ألا يولى عليهم يهودي.

4 - ألا يدخل نصراني في (الجماعة الإسلامية).

5 - وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات نصارى الدين الذي يريدون عند البلوغ.. وغيرها من الشروط إلا أن النصارى لا يلتزمون بشيء من ذلك بل يسبون النساء ويسترقون الرجال ويغتصبون الأموال.

وسقطت الثغور التي كانت تصل غرناطة بالمغرب حيث كانت تفد بعض المتطوعة، وانقطعت الصلة نهائياً بعدوة المغرب والشمال الإفريقي[1].

وتطور سير الأحداث وخضع أبو عبد الله الزغل لملك قشتالة على الرغم من شجاعته وبسالته، وبقي الزغل يحكم وادي آش تحت حماية ملك قشتالة، ولم تقبل نفسه الأبية هذا الوضع المهين، فترك الأندلس مهاجراً إلى المغرب، ونزل وهران، ثم استقر في تلمسان حزيناً على ضياع الأندلس.

وبقيت غرناطة وعلى عرشها أبو عبد الله الصغير تنتظر مصرعها والضربة القاضية من النصارى[2].

في سنة 895هـ / 1490م، أرسل الملكان الكاثوليكيان - فرديناند وزوجه إيزابيلا - وفداً يطلب تسليم غرناطة من أبي عبد الله الصغير، فثارت نفس أبي عبد الله الصغير لهذا الغدر والخيانة، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر، ومعاونته على بني دينه وعقيدته ووطنه فرفض الانقياد والخضوع وقررالمقاومة وسار فرديناند بجيش تراوح ما بين 50 - 80 ألفاً، مع مدافع وعُدد ضخمة، وذخائر وأقوات، وعسكر على ضفاف نهر سنيل على مقربة من غرناطة في 12 جمادى الثانية سنة 896هـ / سنة 1491م، وأتلف الزروع والحقول والقرى كي لا تمد غرناطة بأي طعام، وحاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من عز تليد وملك مديد ضارب في ذاكرة التاريخ السحيق وأصبحت محاطة بالعدو من كل جهاتها.

لقد استبسل المسلمون وتحملوا الحصار بل خرجوا لقتال العدو المحاصر وأفسدوا عليه خططه وتدابيره.

---

(1) انظر: مصرع غرناطة ص 72 - 77.

(2) انظر مصرع غرناطة، ص 77.

وظهر في تلك المقاومة موسى بن أبي عسان، والذي قرر الموت دون الاستسلام ومن أقواله في ذلك: «ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد والرمح، فإذا طمع إلى سيوفنا فليكسبها، وليكسبها غالية، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعاً عنه، من أفخر قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين»[1].

وتولى موسى قيادة الفرسان المسلمين، يعاونه نعيم بن رضوان، ومحمد بن زائدة، وتولى آل الثغري حراسة الأسوار، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون.

وحل الشتاء، وقلت المؤن والذخائر ودخل الوزير المسئول عن غرناطة (أبو القاسم عبد الملك) مجلس أبي عبد الله الصغير، وقال: إن المؤن الباقية لا تكفي إلا لأمد قصير، وإن اليأس قد دب إلى قلوب الجند والعامة، والدفاع عبث لا يجدي.

ولكن موسى بن أبي غسان قرر الدفاع ما أمكن، فقال للفرسان «لم يبق لنا سوى الأرض التي نقف عليها، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن»[2].

استمر الحصار سبعة أشهر، واشتد الجوع والحرمان والمرض، وأعيد تقويم الموقف في بهو الحمراء، فأقر الملأ التسليم إلا موسى بن أبي غسان الذي قال بحزم: «لم تنضب كل مواردنا بعد. ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها..»[3].

وكانت هذه الكلمات الصادقة تخاطب أناساً انهزموا في داخلهم وخارت عزائمهم، وضعفت معنوياتهم، فقرروا المفاوضة والتسليم، وكلف لهذه المهمة الأليمة الوزير أبو القاسم عبد الملك[4]، جاء في نفح الطيب: «وفي ثاني ربيع الأول من السنة - أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة - استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوفاً من

(1) انظر: مصرع غرناطة، ص 81.
(2) انظر: المصدر السابق، ص 82.
(3) انظر: المصدر السابق، ص 82، 83.
(4) انظر: سقوط غرناطة، ص 83.

الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم على أحد منهم إلا شريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً، وأن لا يولى على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم، وأن يفك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصاً أعياناً نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعُدوة لا يُمنع، ويجوزون في مدة عُينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم من الكراء، وأن لايؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يُوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاقب من قتل نصرانياً أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، وترفع عنهم جميعهم المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن[1].

ولا يمنع مؤذن ولا مُصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم يُعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده، ويقول المقري بعد هذا: «وأمثال هذا مما تركنا ذكره» من الشروط[2].

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان: «وهذا أفضل ما يمكن الوصول إليه في مثل هذه المحنة، لو أخلص النصارى في عهودهم، لقد ارتضاها المسلمون والشك يساورهم في وفاء أعدائهم، ولما أنسى فرديناند وإيزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم أعلنا في يوم 29 تشرين الثاني (نوفمبر) مع قسم رسمي بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم، أو حيث شاءوا، وأن يحتفظوا

(1) المدجنون هم الذين بقوا من المسلمين تحت حكم الإسبان.

(2) نفح الطيب (6/ 277، 278) نقلاً عن سقوط غرناطة، ص 83.

بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب، ولكن سوف نرى أن الأيمان والعهود لم تكن عند ملكي النصارى سوى ستار للخيانة والغدر، وأن هذه الشروط الخلابة نُقضت جميعاً لأعوام قلائل من تسليم غرناطة، ولم يتردد المؤرخ الغربي بروسكوت نفسه أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور»[1] وهذا ما تنبأ به فارس الأندلس موسى بن أبي غسان حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليوقعوا على قرار التسليم وقال: «اتركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم تُخلق لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته، فإنه لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها»[2].

وساد سكون الموت في ردهة قصر الحمراء، واليأس ماثل في الوجوه، وغاص كل عزم في تلك القلوب الكسيرة، عندئذ صاح أبو عبد الله الصغير: «الله أكبر... لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا راد لقضاء الله، تالله لقد كتب لي أن أكون شقياً، وأن يذهب الملك على يدي»[3]، وصاح من حوله على: «الله أكبر ولا راد لقضاء الله» وقرروا جميعاً التسليم وأن شروط النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه.

نهض موسى بن أبي غسان وصاح: «لا تخدعوا أنفسكم ولاتظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدها، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاق والمحارق وهذا ما سوف نعاني من مصائب الموت الشريف، أما أنا فوالله لن أراه»[4]، ثم قام وخرج وجاهد حتى استشهد رحمه الله تعالى.

ولقد صاغ الشاعر عدنان مردم بك هذه الصورة على لسان موسى بن أبي غسان فقال:

---

(1) نقلاً عن مصرع غرناطة، ص 85.
(2) انظر: مصرع غرناطة، ص 86.
(3) المصدر السابق نفسه.
(4) المصدر السابق نفسه.

أنا لن أقرّ وثيقة فرضت وأخضع للعدا
ما كان عذري إن جبنت وخفت أسباب الردى
والموت حق في الرقاب أطال أم قصر المدى
إني رسمت نهايتي بيدي ولن أترددا
كنت الحسام لأمتي واليوم للوطن الفدى
أنا لن أعيش العمر عبداً بل سأقضي سيدا[1].

ثالثاً: وصف حي لتسليم غرناطة:

وفي الثاني من ربيع الأول 897هـ، كانون الثاني (يناير) سنة 1492م وفي وقت الصباح تم تسليم المدينة، فما أن تقدم النصارى الإسبان القشتاليون من تل الرحى صاعدين نحو الحمراء حتى تقدم أبو عبد الله الصغير وهو يلبس أثواب الهزيمة وعلى وجهه العار والشنار، وقال للقائد القشتالي بصوت مسموع: «هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة وتسلم القصور - قصوري - باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها، لفضائلهما وزلات المسلمين»[2].

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبد الله الصغير للقيام بهذه المهمة. وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر المنيف حتى صعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليباً كبيراً فضياً وبجانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب. وأعلن من فوق البرج ثلاثاً أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكيين.

وأخذ رنين وبكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه وكانت الحاشية منهمكة في حزم أمتعة الملك المخلوع في ركب قاتم مؤثر يحمل أمواله وأمتعته ومن ورائه أهله وصحبه القلائل وبعض الفرسان المخلصين، وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطي صهوة جوادها يشع الحزن من محياها الوقور. وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة إلى الأبد ضج الحراس بالبكاء[3] وتحرك الركب نحو منطقة البشرات وفي

(1) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، ص 65.
(2) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 124).
(3) نفس المصدر السابق (3/ 125).

شعب من الشعاب المطلة على غرناطة وقف أبو عبد الله الصغير مودعاً لمدينته وملكه، فأجهش بالبكاء على هاتيك الربوع العزيزة، فصاحت به أمه عائشة الحرة: «ابك مثل النساء مُلكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال».

إن هذه الكلمة حري بها أن تكون إطاراً لمأساة غرناطة وقد جمعت فيها كل العبر والأمثلة والحكم.

يقول الأستاذ نجيب زبيب عن هذه الكلمة: «ولما حاولت التعليق عليها ارتعشت يدي وتساقطت الدموع من عيني أسىً وخشوعاً وتهيباً من عظمتها لأنها أصبحت كلمة تاريخية. لا بل وأعظم كلمة قيلت في سقوط غرناطة»[1].

ولقد صور أحد الشعراء على لسانها قولها:

تذكر الله باكياً هل يرد الدمع ... مجداً ثوى وعاراً أقاما
هذني فوق خطبنا أنك ابني ... يا لأم تسقى العذاب تؤاما
لم تصن كالرجال ملكاً فأمسى ... ركنه اندك فابكه كالأيامى[2].

يقول المؤرخ عنان: «وتحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة، وليس ثمة في تاريخ تلك الفترة شخصية تثير من الإعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجى قدر ما يثير هذه الأميرة النبيلة من شجاعة وإقدام وتضحية»[3].

إن لبعض النساء مواقف مشرفة في تاريخ الأندلس الجهادي تصلح نبراساً لفتياتنا وأمهاتنا وبناتنا وأخواتنا وما قصة عائشة الحرة مع ابناها إلا واحدة منها[4].

وبعد شهور من مصرع غرناطة غادر أبو عبد الله الصغير إلى الغرب مع أسرته وأمواله، ونزل مدينة مليلة ثم استقر في فاس[5]، مستجيراً بالسلطان أبي عبد الله محمد الشيخ زعيم بني وطاس، معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يديه ونظم هذا الاعتذار شعراً أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي العُقيلي، وقدمه على لسان أبي عبد الله الصغير لزعيم بني وطاس في رسالة ومنها في مطلعها:

---

(1) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 126، 127).
(2) انظر: سقوط الأندلس، ص 70.
(3) نهاية الأندلس بتصرف، ص 197، نقلاً عن سقوط الأندلس، ص 69.
(4) انظر: سقوط الأندلس، ص 70.
(5) نفح الطيب (6/ 278) نقلاً عن سقوط غرناطة، ص 96.

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعياً لما مثله يُرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً ... وأفظع الحظ ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتى لا مردَّ له ... وهل مرد لحكم منه منحتم
وهي الليالي وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الآساد في الأجم
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهامٌ للردى صبب ... يرمي بأفجع حتف من بهن رُمي
فلا تم تحت ظل الملك نومتنا ... وأي ملك بظلّ الملك لم ينم
يبكي عليه الذي قد كان يعرضه ... بأدمع مزجت أمواهها بدم[1]

ومرت سنون، وخبا أثر مصرع الأندلس شيئاً فشيئاً في نفوس المسلمين، وأسدل ستار من النسيان عليه، ولكن مأساة المسلمين المتنصرين (أو الموريسكيين) لم تقف، وظهرت محاكم التفتيش التي هدفت إلى إبادة المسلمين في الأندلس.

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة ومؤسفة لشعب مغلوب، وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها، وحرق من بقي منهم، وزاد الكردينال (كمينسس) على ذلك، فأمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداساً في أكبر ساحات المدينة، وفيها علوم لا تقدر بثمن، بل هي خلاصة ما بقي من التفكير الإنساني وأحرقها[2]، لقد ظن رئيس الأساقفة بفعله ذلك أنه سوف يقضي على الإسلام في إسبانيا وأنى هذا له، وقد تركت حضارة الإسلام في الأندلس من الآثار ما يكفي لتخليد ذكرها على مر الدهور وكر العصور، وإن للإسلام جولة وصولة من جديد بإذن الله في ديارنا التي سلبت من أيدينا وسيكون ذلك قريباً عندما يمكن الله لهذه الأمة وإنها لتمر في مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: 51].

(1) انظر: نفح الطيب (6/ 618 إلى 288).
(2) انظر: سقوط غرناطة، ص 98.

رابعاً: محاكم التفتيش:

هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي أسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الإسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة وفي تموز (يوليه) 1501م أصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته «أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال».

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع، فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه، يزج به في السجن وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة، تغص بالحشرات والجرذان، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم، لتدفع نفقات سجنهم. ومن أنواع التعذيب: إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفعه وخفضه معلقاً، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمية، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وتمزيق الأرجل وفسخ الفك.. ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم في خطر، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه[1].

وقرار المحكمة لا يتم إلا عند التنفيذ في ساحة البلدة، وهو إما سجن مؤبد، أو مصادرة أموال وتهجير، أو إعدام حرقاً وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع الملكين الكاثوليكيين حفلات الإحراق[2].

ومما يذكر.. أن هناك عذاباً اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور

(1) انظر: محاكم التفتيش، ص 91، نقلاً عن سقوط غرناطة، ص 100.

(2) انظر: سقوط غرناطة، ص 100.

ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنية لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعاً ورعباً[1].

لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. إلا من يقولها في قلبه، وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين، لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيا لها من فجيعة ما أمرها! ومصيبة ما أعظمها وطامة ما أكبرها»[2].

«وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان، فعلى هذا فليبك الباكون، ولينتحب المنتحبون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، كان ذلك في الكتاب مسطوراً وكان أمر الله قدراً مقدوراً»[3].

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب.

كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان.

فإذا عُلم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكماً بالموت، وإذا وجدوا رجلاً لابساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام.

---

(1) انظر: محاكم التفتيش، ص 93، نقلاً عن سقوط غرناطة، ص 109.
(2) انظر: نهاية الأندلس، ص 321، نقلاً عن سقوط الأندلس، ص 72.
(3) انظر: سقوط الأندلس ص 72.

لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين، حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته[1].

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق. أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب (الأوتودافي) وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضى بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة[2].

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحني أمامه أية سلطة وتحمي أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة، وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة والقبض على الأبرياء بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته. وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد. هذا بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة في السجن جوعاً.

وكان العرش يعلم بهذه الآثام المثيرة ولا يستطيع دفعاً لها؛ ولأنه كان يرى فيها في الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائماً موضع البغض والريب، وأبت إسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها، وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد، ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم وترى فيهم دائماً منافقين مارقين.

وإليك ما يقوله في ذلك مؤرخ إسباني كتب قريباً من ذلك العصر وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً في غرناطة: «وكانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد فإذا ذهبوا إلى القداس في أيام الآحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام. وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف وفي يوم الجمعة يحتجبون

(1) انظر: سقوط الأندلس، ص 10.

(2) انظر: ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى لمحمد عبد الله عنان ص 24/ 32 نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 222).

ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم، وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون. وإذا عُمد أطفالهم عادوا فغسلوهم سراً بالماء الحار. ويسمون أولادهم بأسماء عربية وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقي البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدي الثياب العربية ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية»[1]. وقد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقي ضوءاً أكبر على أحوال الموريسكيين في ظل التنصير وتعلقهم بدينهم القديم، كيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التي يمكن أن تبرر مسلكهم وتشفع لهم لدى ربهم[2].

خامساً: فتاوى هامة:

وهذه الفتاوى عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى المسلمين الذين أُكرهوا على التنصير، حيث قدم لهم بعض النصائح التي يعاون اتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام عند الإكراه من قبل القوة النصرانية الحاقدة، وكان تاريخ هذه الرسالة سنة 910هـ / 28 نوفمبر 1504م.

وهذا نص الفتاوى:

(الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً)

إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثو سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، بعد السلام عليكم من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيداً لله تعالى أحمد ابن بو جمعة المغراوي ثم الوهراني. كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار ومؤكداً

(1) أي: الأحكام الإسلامية.

(2) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 223).

عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم، إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع وأن الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله. فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم ، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور وإن منعتكم فالصلاة قفاء بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان، فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به، فاقصدوا بالإيماء. نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله ﷺ: **«فأتوا منه ما استطعتم»**. وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله. وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرّم. وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيرتموه. وكذا إن أكرهوكم على رباً أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتتصدقوا بالباقي إن تبتم لله تعالى، وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئنين القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك وإن قالوا: اشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمَذْ، فاشتموا مُمداً، ناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه، وإن قالوا عيسى توفي بالصلب فانووا من التوفية الكمال والتشريف من هذه وإماتته وصلبه، وإنشاد ذكره إظهار الثناء عليه بين الناس وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو. وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به. وأنا أسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام. ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله

ورضيتم به ولا بد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً. بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خبره «يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى»[1].

سادساً: القواعد النصرانية الإسبانية في معاملة من أكرهوا على النصرانية:

لقد نقل إلى المؤرخين (الدون روني) مؤرخ ديوان التفتيش الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها المسلمون المتنصرون في تهمة الكفر والمروق، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة[2]:

«يعتبر الموريسكي[3] أو العربي المتنصر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً وليس إلا رسولاً. أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك. ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية. ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح. وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية. أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة. أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في اتباعه هذه العادة، أو يقول: إنه يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر. أو يقوم بالوضوء والصلاة، بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن. أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية. أو ينشد الأغاني العربية. أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية. أو أن يستعمل النساء الخضاب في أيديهن أو شعورهنّ، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد. أو يغسل الموتى ويكفنهم في أثواب جديدة أو يدفنهم في أرض بكر.

---

(1) هذه الفتاوى عثر عليها الأستاذ محمد عبد الله عنان خلال بحوثه في مكتبة الفتيكان برومه. انظر الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (1/ 225).

(2) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 226).

(3) الموريسكي يطلق على المسلم الذي أكره على الدخول في النصرانية..

أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتاً إياه بالنبي ورسول الله. أو يقول: إن الكعبة أول معابد الله أو يقول إنه لم يُنصَّر إيماناً بالدين المقدس. أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله؛ لأنهم ماتوا مسلمين..»[1].

لقد استمرت محاكم التفتيش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ في الديار الإسلامية والعربية، يمارسون القهر والظلم والجور بكل أنواعه على أبناء المسلمين الذين يطالبون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في كافة حياتهم، إنها حلبة الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والعدل والظلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد استمرت محاكم التفتيش قروناً عدة وعندما احتل نابليون إسبانية بعد قيام الثورة الفرنسية أصدر مرسوماً سنة 1818م بإلغاء محاكم التفتيش في إسبانيا، ولكن رهبان (الجزويت) أصحاب المحاكم الملغاة استمروا في القتل والتعذيب، فشمل ذلك الجنود الفرنسيين، فأرسل المريشال (سولت) الحاكم العسكري الفرنسي لمدريد الكولونيل (ليمونكي) مع ألف جندي وأربعة مدافع، وهاجم دير الديوان، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة لم يعثروا على شيء فقرر الكولونيل (ليمونكي) فحص الأرض، وعند ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات قلقة، أمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة، فرفعت، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة، ففعلوا. فإذا الماء يتسرب إلى أسفل في إحدى الغرف، فعرفوا أن الباب من هنا يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس. وفتح الباب بقحوف البنادق، واصفرت وجوه الرهبان وكستها غبرة. وظهر سلم يؤدي إلى باطن الأرض ونزل القائد الكولونيل وجنده. ويذكر هذا الإنسان في مذكراته ما يلي[2]:

فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، ربطت بها سلاسل، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة وأمام ذلك العمود عرش (الدينونة) كما يسمونه، وهو عبارة عن (دكة) عالية يجلس عليها رئيس الديوان[3]، وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً معدة

(1) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب (3/ 226، 227).
(2) انظر: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، لمحمد الغزالي نقلاً عن مصرع غرناطة.
(3) رئيس ديوان محكمة التفتيش.

لجلوس جماعة القضاة ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب، وتمزيق الأجسام البشرية. وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض. وقد رأيت بها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى التقزز ما حييت: رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الأفقية ممداً بها حتى يموت. وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية ما زالت في أغلالها سجينة.

والسجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين، واستطعنا فكاك بعض السجناء الأحياء وتحطيم أغلالهم، وهم على آخر رمق من الحياة، وكان فيهم من جُن لكثرة ما لاقى من عذاب، وكان السجناء عرايا زيادة النكاية بهم، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها لفيفاً من النساء السجينات.

وانتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم، وكانوا يبدءون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين، وذلك كله على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على البدن المهشم، فيخرج إلى الجانب الآخر كتلة واحدة.

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه الرأس المُعذب، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجليه فلا يقوى على الحركة وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة. وقد جُن الكثيرون من ذلك اللون من العذاب، قبل أن يحملوا به على الاعتراف، ويبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت[1].

وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى السيدة الجميلة، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة. وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة. ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مُزق الشاب وتقطع إرباً إرباً.

كما عثرنا على جملة آلات لسل اللسان، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظم.

---

(1) انظر مصرع غرناطة، ص 112.

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب جُن جنونهم وانطلقوا - كمن به مس - فأمسكوا برئيس الدير ووضعوه في آلة التكسير، فدُقت عظامه دقاً، وسحقتها سحقاً.

وأمسكوا أمين سره، وزفوه إلى السيدة الجميلة، وأطبقوا عليهما الأبواب فمزقته السكاكين شر ممزق، ثم أخرجوا الجثتين، وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك[1].

قلت: ومن سنن الله الجارية تسليط بعض الظالمين على بعض؛ ولذلك انتقم الله من هؤلاء القساوسة المتوحشين الذين نزعت من قلوبهم أدنى مشاعر وأحاسيس الإنسانية وانقادوا في حزب الشيطان اللعين.

سابعاً: أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً:

1 - **تفتت كيان الشمال الإفريقي** بعد سقوط دولة الموحدين حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عن ما تبقى للإسلام في الأندلس.

2 - **سعي ممالك إسبانيا نحو الاتحاد** وتم ذلك في الزواج السياسي الهام الذي تم بين (فرناندو) الذي أصبح ملكاً لمملكة أرجون، وإيزابيلا التي تبوأت عرش مملكة قشتالة فيما بعد، ثم اتحدت المملكتان النصرانيتان وتعاونتا معاً بعد اتحادهما على القضاء كلية على سلطان المسلمين السياسي في الأندلس[2].

3 - **الانغماس في الشهوات** والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: «العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات»[3].

أما شوقي أبو خليل فيقول: «والحقيقة تقول: إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة،

(1) انظر: مصرع غرناطة، ص 93.
(2) المصدر السابق.
(3) انظر: المصدر السابق، ص 94.

والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرسوا على الحياة الخشنة الجافية، وغدا التهتك والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلىء.

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون، وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها، فكانت الخمور والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبّون في بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعباً يهوي إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون، لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد، أو يتكون منهم جيش قوي، كفء للحرب والمصاولة»[1].

لقد تنافس الولاة والحكام في الجواري حتى أصبحت ساحات للمعارك والقتال، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سُنة متبعة بينهم، وقفْ عند هذه الحادثة: ذكر المؤرخون أن وفاة ابن هود عام 635هـ كانت على يد وزيره محمد الرميمي بسبب النزاع حول فتاة نصرانية كانت لابن هود، فدبر له مكيدة قتل بها.

أهذه قيادة تستحق أن تحكم رقاب أمة محمد ﷺ[2]؟ دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور (الله أكبر) وبقينا فيها زمناً، حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قُدم إليه خمر ليشرب قال: «إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه»[3].

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس: «كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم، أشربت نفوسهم حُبه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم»[4].

(1) مصرع غرناطة، ص 94.
(2) انظر: سقوط الأندلس، ص 29.
(3) المصدر السابق، ص 27.
(4) انظر: المصدر السابق، ص 211.

وضاعت ممالك الأندلس من أيدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين:

دوزن العود وهات القدحا راقت الخمرة والورد صحا[1]

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام 456هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلى:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا[2]

4 - **الاختلاف والتفرق بين المسلمين**، ولو نظرت إلى تاريخ العلاقات بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين وبني عبد الواد والدولة الحفصية لوجدت أمراً فظيعاً، وصل إلى حد الاشتباك والقتال بين المسلمين؛ بل أكثر من ذلك حيث تحالف المسلمون مع النصارى ضد إخوانهم في العقيدة من أجل شهوة السلطة، وكان هذا التفرق الذميم منذ ملوك الطوائف، بل إن التفرق من أبرز سمات عصر ملوك الطوائف، حتى قال ابن المرابط واصفاً حال المسلمين:

ما بال شمل المسلمين مبددٌ فيها وشمل الضد غير مبدد
ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم وطريق هذا الغدر غير ممهد
إن قال لم فرطتم في دينكم وتركتموه للعدو المعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد[3]

إن سنة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف، وقال ﷺ في حديث أخرجه إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى: «**فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**» وفي رواية «فأهلكوا»[4].

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود: «**فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف**»[5]

(1) انظر: النصر والهزيمة، لشوقي أبو خليل، ص 123.
(2) انظر: فقه التمكين عند دولة المرابطين، لعلي محمد الصلابي، ص 90.
(3) انظر: سقوط الأندلس، ص 33.
(4) صحيح البخاري بشرح ابن حجر (9/ 101، 102).
(5) المصدر السابق (9/ 102).

قال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف[1].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف»[2].

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم، وهو الذي يؤدي إلى تفرقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف يعتقد بطلان ما عند الطرف الآخر، وقد يئول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً[3].

«وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله ﷺ؛ لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقاً شتى مما يضعف الأمة؛ لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتهاوهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرىء العدو عليها فيطمع فيهاجمها ويحتل أراضيها ويستولي عليها ويستعبدها ويمسخ شخصيتها وفي ذلك انقراضها وهلاكها»[4].

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الأندلس وهلاكها واندثارها، وإن أخطر ما نعاني منه الآن الخلاف في صفوف الحركات الإسلامية التي تقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وهذا الخلاف قد يؤدي إلى ضعف الحركات العاملة إذا لم نأخذ بسبل الوقاية منه.

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان: «والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها؛ ولهذا كان شر ما تبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقاً شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة. وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة أو أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفرق،

(1) المصدر السابق نفسه.
(2) انظر: مجموع الفتاوى (19/ 116).
(3) انظر: السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص 139.
(4) انظر: السنن الإلهية، ص 139.

ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفرق في أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة.

والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة، وإنما يضعف تأثيرها في الناس وتجعل المغرضين ينفثون باطلهم في الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تعيب الأخرى وتدعي أنها وحدها على حق. ثم يئول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هي فرق المنفصلين عنها، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول»[1].

5 - **موالاة النصارى والثقة بهم** والتحالف معهم حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء والحب في الله والبغض في الله بل هذه المعاني كادت تندثر.

إن الأمة حيث تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه فلا بد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 57].

وقوله ﷻ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: 28].

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ . . .﴾ [المجادلة: 22].

وقد أبان رسول الله ﷺ طريق الأمة في الولاء والبراء فقال: «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله**»[2].

ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه - ﷻ: «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**»[3].

---

(1) السنن الإلهية، ص 140، 141.

(2) أخرجه أحمد في مسنده (4/ 286).

(3) البخاري مع الفتح، كتاب الرقائق، رقم 6501.

فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسنة نبيها وتخالفه، فلا بد أن تُرى فيها سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل.

فهذا المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منه الصلح ويدفع له المال، ونراه جاهداً في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أما كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس عامة وللإسلام وأهله ولكنك لا تجني من الشوك العنب.

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتى أن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارى ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام فهل يؤمن الذئب على الغنم!![1].

وهذا أبو عبد الله الصغير سلطان غرناطة الأخير يرسل رسالة إلى ملك الإسبان يعتذر فيها عما فعله أبو عبد الله الزغل في إحدى المعارك ضد النصارى من قتل وجراح. ولما سقطت مالقة وحوّل مسجدها الأعظم إلى كنيسة - ردّه الله إلى أصله - أرسل أبو عبد الله الصغير إلى ملك النصارى يهنئه في ذلك، وسبب فرحه بسقوطها أنها كانت معقلاً لمنافسه عمه الزغل.

وعلى يد هذا الصغير قدمت الأندلس للنصارى على طبق من ذهب، دون أن يجد النصارى في ذلك عناءً يذكر!.

وهل شكر النصارى لهذا المتخاذل خذلانه؟ لقد طردوه من الأندلس إلى المغرب وفي ذلك يقول المقري - رحمه الله - : «ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس - حرسها الله - وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السؤال، بعد الملك الطويل العريض، فسبحان المعز المذل، المانح المانع لا إله إلا هو»[2].

6 - التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة:

لقد كانت أحاديث الرسول ﷺ في تلك المرحلة معطلة كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله ﷺ: **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»**[3].

وقوله ﷺ: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»**[4].

---

(1) سقوط الأندلس، ص 24.

(2) انظر: سقوط الأندلس (67، 68).

(3) البخاري مع الفتح، كتاب المظالم، رقم 5442 (5/ 116).

(4) المصدر السابق، كتاب المظالم، رقم 2446، (5/ 117).

لقد تخاذل ملوك الشمال الإفريقي عن نصرة ما تبقى من الإسلام والمسلمين في الأندلس بسبب حروبهم الطاحنة المدمرة فيما بينهم، وانشغالهم ببعضهم وأنهكت قواهم في حروب مريرة لم يستفد منها إلا أعداء الإسلام.

لقد كان التخاذل في الأندلس من زمن ملوك الطوائف حيث يتخاذلون عن نصرة من يستحق النصرة وإليك ما حدث في طليطلة:

قال د. عبد الرحمن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف:

«قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير، ولحموها وحموا أنفسهم، كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته وكأن الأندلس وجدت لمنفعة وليتربع على كرسي حكم، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد»[1].

وبسبب هذا التخاذل سقطت كثير من الولايات الأندلسية في الفترة الزمنية بين عامي 627 - 655هـ، وكانت فترة سقوط أكثر الممالك الإسلامية في الأندلس في أقل من ثلاثين عاماً، تنقلب خارطة الأندلس، ويتمكن منها عبّاد الصليب، وتصبح معظم الأندلس أرضاً نصرانية تحارب الإسلام بكل ما تملك من أجل سحقه ومحوه من الوجود.

يقول المقري في نفح الطيب واصفاً استعداد النصارى لإحدى المعارك: «وجاء الطاغية دون بطء في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكاً، وذهب إلى طليطلة، ودخل على مرجعهم البابا، وسجد له وتضرع، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين في الأندلس، وأكد عزمه على ذلك»[2].

ويقول جوستاف لوبون في (حضارة العرب) إن الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من 140 ألف مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى إفريقية[3].

---

(1) انظر: التاريخ الأندلسي، ص 332.

(2) نفح الطيب (1/ 449، 450) نقلاً عن سقوط الأندلس، ص 45.

(3) انظر: عوامل النصر والهزيمة، ص 121.

وكانت نتيجة تخاذل المسلمين واستماتة النصارى كما قال الشاعر:

كم جامع فيها أعيد كنيسة ... فأهلك عليه أسىً ولا تتجلد
أسفاً عليها أقفرت صلواتها ... من قانتين وراكعين وسُجّد
كم من أسير عندهم وأسيرة ... فكلاهما يبغي الفداء فما فدي
كم من عقيلة معشر معقولةٍ ... فيهم تود لو أنها في ملحد
كم من تقيّ بالسلاسل موثق ... يبكي لآخر في الكبول مقيّد
ضجّت ملائكة السماء لحالهم ... وبكى لهم من قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا ... مما دهانا من ردىً أو من ردي[1]
أفلا تراعون الأذمة بيننا ... من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم في إخوانكم ... وسيوفكم للثأر تتقلد
يا حسرتي لحمية الإسلام قد ... خمدت وكانت قبل ذلك توقد[2]

7 - غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارى عبّاد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم[3].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 14].

لقد سطر النصارى في الأندلس تاريخاً مليئاً بالدماء وهتك الأعراض وقتل النفوس وسبي النساء.

قال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: 10].

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: 120].

لقد استمات النصارى في حروبهم مع المسلمين فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

---

(1) انظر: سقوط الأندلس، ص 46.
(2) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 63).
(3) سقوط الأندلس، ص 40.

ولقد استطاعوا أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عموماً، وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارى الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرناندو ملك قشتالة واستطاعوا أن يوحدوا كلمتهم وأن يجعلوا صفهم متراصاً في مواجهة أمة الإسلام وإزالتها من الأندلس.

8 - إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لا شك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس بزوال الخلافة الأموية ونشأ على إثر ذلك عهد السنوات الصعاب، كانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحداً وأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتمد فيها معتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[1]

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام: «والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من حرب المسلمين، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه..»[2].

فبعد أن كانت دولة الإسلام واحدة، أصبحت أسر الطوائف سبعاً وعشرين طائفة أو إمارة أو دويلة تتنافس فيما بينها.

يقول د. عبد الرحمن الحجي عن هؤلاء الحكام: « وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء، اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم مصالح الأمة، وتركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمناً لبقائهم في السُلطة، ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيّعوا من الحظ الخُلقي المسلم، انحرف هؤلاء المسئولون عن النهج الحنيف الذي به كانت الأندلس وحضارته»[3].

9 - عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهداً مشكوراً لتوحيد صفوف المسلمين وتصدى

(1) سقوط الأندلس، ص 31.
(2) مجموع رسائل ابن حزم (3/ 176).
(3) التاريخ الأندلسي، ص 325.

أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي: «فرفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون ولكنه لم يصادف أسماعاً واعية؛ لأنه نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال دائرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه في التنافس والتقريب، وهو في الباطن يستجل نزعته ويستقل طلعته وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حالاً تثوب، ومذنباً يتوب»[1].

إلا أن هناك بعض العلماء تخلوا عن واجبهم المقدس، وقدموا مصالحهم الذاتية على مصالح الأمة ودخلوا في معارك فرعية وبالغوا فيها فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم، انصرف عدد من العلماء إلى العناية المبالغة[2] بالفقه المذهبي وفروعه ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها» وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم - رحمه الله -: «ولا يغرنك الفُساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم»[3].

10 - الرضا بالخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم:

«ففي عام 643هـ تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وفي طاعته، وأن يؤدي له جزية سنوية، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه!! فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة باعتباره من الأمراء التابعين للعرش، وسلّم ابن الأحمر جيّان، وأرجونة، وبركونة، وبيغ والحجاز وقلعة جابر للنصارى»[4].

ولما حاصر النصارى إشبيلية في جمادى الأولى عام 645هـ، قدّم ابن الأحمر قوة من الفرسان للمعاونة في حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها. وأبدى المسلمون آيات من البسالة والجلد في الدفاع عن إشبيلية، وطال الحصار زهاء ثمانية

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني، ص 95، 96.
(2) سقوط الأندلس، ص 35.
(3) مجموع رسائل ابن حزم (3/ 173).
(4) نهاية الأندلس، ص 43، نقلاً عن سقوط الأندلس، ص 22.

عشر شهراً اضطروا إلى الخضوع والتسليم مقابل أن ينجوا بأنفسهم وأموالهم، وفي أوائل رمضان 646هـ دخل فرناندو الثالث مدينة إشبيلية، وفي الحال حوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة وأُزيلت معالم الإسلام منها بسرعة[1].

ونتيجة لتصرفات هؤلاء الولاة هاجر كثير من أهل الأندلس المسلمين إلى بلاد المغرب فراراً بدينهم وأرواحهم، مع أن بلادهم يحكمها المسلمون، حتى قال شاعر الأندلس ابن الصلصال:

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فيما المقام بها إلا من الغلط
السلك يُنثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف النجاة مع الحيات في سفط[2]

11 - سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات:

وظهرت ظواهر متعددة تدل على سوء السياسة في الأندلس، منها تولية صغار السن الولاية وبعضهم لم يبلغوا الحادية عشرة، ومنها الاستئثار بالأمر وترك الشورى، ومنها تخوين الأمين، وتأمين الخئون، ومنها ظهور الظلم والعسف والجور وتمثل ذلك في صور عدة منها: إرهاق الأمة بالضرائب والجبايات والإتاوات والمكوس التي ما أنزل الله بها من سلطان.

يقول الدكتورالحجي: «ساءت أحوال بلنسية بسوء السياسة وإرهاق أهلها بالضرائب لسداد مطالب القشتاليين الذين كثر عبثهم، وغدت لهم السيادة الحقيقية على المدينة، وغادرها كثير من أعيانها نتيجة لهذه السياسة الطائشة التي اتبعها القادر إرضاءً لأنانيته ورغبة في البقاء بمركزه، ولو كان في ذلك ضياع الدين وانتقاص البلد وإرهاق الناس، وتحت حماية عدو متربص وخصم غادر»[3].

وترتب على هذه السياسات الظالمة والمظاهر المنحرفة، والمظالم المتعدية، والجور المنتشر اضطرابات، وفتن وصراعات كثيرة، فمثلاً مملكة غرناطة حكمت بين عام 635هـ وعام 893هـ من قبل تسعة وعشرين حاكماً، حتى إن بعضهم لم يستمر في الحكم أكثر من عدة أشهر وبعضهم سنة أوسنتين. لقد كان تقديم المصالح الشخصية

(1) انظر: سقوط الأندلس، ص 22.
(2) نفح الطيب (4/ 352) نقلاً عن سقوط الأندلس، ص 49.
(3) التاريخ الأندلسي، ص 368.

مقدماً عند كثير من الولاة على مصالح المسلمين؛ ولذلك غلبت الأنانية وحب الذات والزعامة على كثير من المبادىء والمثل والقيم[1].

12 - **الثورات الداخلية في الأندلس**: وكانت لها أسباب متعددة منها ظلم الولاة، ومنها قيام بعض النصارى الذين أخفوا مسيحيتهم وأظهروا الإسلام، فاستطاعوا أن يتصلوا بممالك النصارى ويقوموا بدور تخريبي واستخباراتي ضد دولة الإسلام في الأندلس، وظهرت ثورات عديدة في الأندلس تنادي وتطالب بالاستقلال الذاتي، ومن أشهر هذه الثورات تلك التي قادها عمر بن حفصون والذي استطاع أن يعزل قرطبة عن سائر المناطق الأخرى، ثم اتصل بالعباسيين في العراق والأغالبة في إفريقية، ولما يئس من الوصول إلى أهدافه أظهر ما كان يبطنه من النصرانية عام 899م واتخذ اسم صموئيل وهو اسم في المعمودية، وأعلن عداءه للإسلام والمسلمين وقاتلهم بكل كره و عنف وحقد حتى كاد أن يسقط عاصمة الأمويين إلى أن جاء الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث - الناصر وكان شجاعاً حازماً، فواصل الفتوحات وطالت مدته في الحكم «نصف قرن» فكانت أول مدينة استسلمت له إستجة ثم لحقت بها مدينة ألبيرة كذلك استسلمت مدينة جيان وقبلت «أرخدونة» أن تدفع الجزية، ورضخت إشبيلية لقوات عبد الرحمن في 913م وأخضع «ريه» التي كانت ملاذاً لعاصمة ابن حفصون الذي قاد حركة عدائية ضد الإسلام في الأندلس 37 عاماً، وحاصر طليطلة سنة 932م واستسلمت له، وكان الأعداء يتربصون بالإسلام في الأندلس، فملوك النصارى في الشمال لا يكلون ولا يملون في زرع الجواسيس وتفجير الثورات ودعم المنشقين من أجل القضاء على الإسلام، والدولة العبيدية الرافضية في إفريقية تحالفت مع ابن حفصون النصراني المرتد ضد مسلمي الأندلس، وأرسلت الدعاة وأسسوا حزباً عبيدياً رافضياً في الأندلس وتستروا بالطرق الصوفية، وقاومهم عبد الرحمن الثالث واستطاع أن يقضي على معظم مخططات الأعداء الهادفة للقضاء على الإسلام في الأندلس، وكان بوسع عبد الرحمن أن يقضي على ممالك النصارى في الأندلس ولكن لله في خلقه شئون[2].

---

(1) انظر: سقوط الأندلس ص 51 .

(2) انظر: ابن عذارى (1/ 47) نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 262 إلى 267).

لقد كانت الشبكات التخريبية الاستخباراتية التي فجرت الثورات وتسترت بالإسلام من الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة الأندلس الإسلامية وزوال الإسلام منها.

ولقد اكتشفت مخابرات دولة المرابطين تلك اللعبة المزدوجة التي كان يقوم بها بعض الخونة المندسين بين المسلمين، والذين يتجسسون على حكام الإسلام في الأندلس والمغرب لصالح ملوك النصارى، فاستفتى السلطان يوسف بن تاشفين بشأنهم الفقهاء فأفتوا بوجوب هدم الكنيسة القوطية في غرناطة التي كانت بؤرة الفساد والتجسس على الدولة المرابطية السنية، وواصل ابنه الأمير علي بن يوسف متابعة الأعمال التخريبية، فألقى القبض بعد ثبوت التهم على عملاء النصارى، فأعمل في بعضهم السيف ونفى من تبقى منهم إلى المغرب، لقد أثبتت التحقيقات أنهم كانوا يتجسسون لصالح ملك النصارى القشتالي وغيره من ملوك القوط ولم تعط مخابرات دولة المرابطين أدنى فرصة لهؤلاء المندسين[1].

ثامناً: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على مسلمي الأندلس:

1 - إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شئون حياتهم. قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63].

2 - لقد كان في ممارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة، فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاباً بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسب كل صيحة عليه، يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام

(1) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 346). لقد نقلت من الكتب الآتية في تحليل أسباب سقوط الأندلس: سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، مصرع غرناطة، شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة، شوقي أبو خليل، السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي وغيرها من الكتب.

الأعداء من أثر المعاصي على قلبه، وأصبح في ضنك من العيش: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124].

أما الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبلد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي، فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه، وأصابهم ما أصاب بني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: 78-79].

فإن أي أمة لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل. قال رسول الله ﷺ: «**كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله على قلوب بعضكم ببعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم**»[1].

3 - إن ملوك الأندلس تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ . . .﴾ [الأنفال: 53].

كما أن المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم.

إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم على شعب الأندلس كله، وفرط أهل الأندلس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانعكس ذلك في حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت؛ ولذلك حرمت شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هذا الدين، لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من أتباعهم إلا من رحم الله، وتركوا الحق وانقادوا للضلال وابتلوا بالنفاق، وفضحهم الله بذلك، وحرموا التوفيق والرجوع للصواب، وخف دينهم وضعف إيمانهم، بسبب بطرهم للحق وغمطهم لحقوق الناس وابتعادهم عن شرع الله.

---

(1) أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف، رقم 4670.

4 - لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض، وتعطلت أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن وبلايا وتولدت على إثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم.

5 - وبسبب الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ سهلت مهمة النصارى في الأندلس فأصبحت شوكتهم تقوى وتحصّلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأندلس، وحرموا من التمكين وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم، وبعض المدن تبتلى بالجوع بسبب حصار النصارى لهم، وكم قتل النصارى من المسلمين وكم سبوا من نسائهم.

6 - إن الابتعاد عن شرع الله في الأندلس ترتب عليه انتقاض الأرض وضياع الملك، وتسلط الكفار وتوالي المصائب.

7 - إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط عليهم من لا يعرفونه؛ ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين في الأندلس، وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض الملوك واستنصروا إخوانهم في الدين في زمن المرابطين والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم، ثم خلص الله أهل الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين وأبدلهم بأمراء عادلين منقادين لشريعة رب العالمين.

8 - إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

- معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.
- كفر النعم بالبطر والأشر وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك الأندلس وأمراؤهم وأتقنوه إتقاناً عجيباً.

يقول الشاعر البسطي الأندلسي:

هذا جزاء مخالف مثلي أبى تقوى الإله ودان بالعصيان

وقال المرابط كاتب ابن الأحمر:

سوّدت وجهك بالمعاصي فالتمس وجهاً للقيا الله غير مسوّد

مـــن ذا يـــتـــوب لـــربـــه مـــن ذنـــبـــه أو يـقـتـدي بـنـبـيـه أو يـهـتـدي[1]

وكان من إجابة المتوكل بن الأفطس لأوفونس ملك النصارى:

«أما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أي مصاب أذقناك»[2].

(1) انظر: سقوط الأندلس، ص 61.

(2) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي، ص 337، نقلاً عن الحلل الموشية في ذكر الأخبار المركشية ص 20 - 23، كذلك: الطوائف، محمد عبد الله غسان، ص 90 - 91.

obeikandl.com

المبحث الثاني

دولة بني مرين والدولة الوطاسية والدولة السّعدية

أولاً: دولة بني مرين في المغرب الأقصى

استطاعت قبيلة بني مرين أن تسقط دولة الموحدين عام 668هـ/ 1269م وهم يتفرعون من قبائل (زناتة)، مثل (مغراوة) وبني (يفرن)، وكانت مضاربهم في الصحراء الكبرى وتعتبر من القبائل البدوية المتنقلة، وقد تزعم هذه القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتقى وبسلامة العقيدة والابتعاد عن الأفكار التومرتية المنحرفة، ومن أشهر زعمائهم قبل الوصول إلى الدولة:

عبد الحق بن محيو المريني:

كان عبد الحق أول من تزعم قبائل بني مرين ضد الدولة الموحدية، وأول من رسم الخطوط العريضة لدولة بني مرين، وكان قد اشتهر بالورع والتقى، وبسلامة العقيدة والابتعاد عن البدع، والأفكار الغريبة، والتزم بالمذهب المالكي في سيرته[1] وقد مات عبد الحق سنة 614هـ، فخلفه بعده أبناؤه الأربعة: أبو سعيد عثمان، مات سنة (642هـ)، وأبو بكر عبد الحق، مات سنة (656هـ)، ويعقوب بن عبد الحق، وهو الذي استطاع أن يقضي على الموحدين وصار أمير المغرب سنة 668هـ (1269م) وقد تكلمت عن سيرته الجهادية في الأندلس[2].

ثانياً: المنهج الذي قامت عليه الدولة المرينية:

لا تستطيع أي حركة في المغرب أن تصل إلى القواعد الشعبية بدون رفع شعارات الإسلام؛ ولذلك من الطبيعي أن تستند دولة بني مرين إلى كونهم حماة الإسلام والمسلمين، وقد أثبتت الأحداث صدق هذه الدعوة في وقوفهم مع مسلمي الأندلس ضد الخطر النصراني على دولة الإسلام هناك، إلا أن صدامهم مع الموحدين

---

(1) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 55).

(2) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (2/ 200).

وانتصاراتهم المتتالية أقنعت بعض المؤرخين[1] أن حركة المرينيين ذات دلالة سياسية أكثر منها دينية، وبأنهم لم يكن لهم مذهب ديني يدعون له كالمرابطين والموحدين، وكانت شعاراتهم المرفوعة في حركتهم الانفصالية، العمل على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية، ومن هنا كسبوا محبة الناس، إلا أن إقدام زعماء بني مرين على قتال الموحدين يدل على قناعتهم الراسخة بأن الموحدين ليسوا مؤهلين لقيادة المغرب، سواء من المنظور الشرعي أو السياسي.

واتخذ زعماء بني مرين أسلوباً عسكرياً وسياسياً للوصول إلى الحكم وإسقاط الموحدين، حيث خاضوا معارك ضارية مع الموحدين وحققوا انتصارات كبيرة عليهم، ومن أجل الحفاظ على تلك المكاسب والانتصارات استعملوا أسلوباً سياسياً بارعاً، تمثل في الاعتراف بالخلافة الحفصية في تونس وطلب العون منهم، وبذلك حققوا مكاسب متعددة، منها وقف خطر بني زيان القادم من الجزائر نحوهم، وتضعيف التحالف بين بني زيان ودولة الموحدين بإدخال طرف قوي في النزاع[2]، وقام بنو حفص بمساعدة بني مرين وتدمير تحالف بني زيان مع الموحدين والاستيلاء على تلمسان عاصمة بني زيان عام 640هـ/ 1243م. ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبعية لبني حفص[3].

وعندما وصل السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور للحكم استقل بالإمارة والسلطنة وانفصل عن الحفصيين.

وقام أبو يوسف باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية من أجل تثبيت البناء الجديد وفرض سيطرتها وقوتها على كافة الأقاليم، واستطاع في فترة قصيرة أن يحقق نجاحات واسعة، فاستطاع أن يضبط الأمن، ويرعى مصالح العباد، وعمل على توحيد المغرب الأقصى، وضم كافة المدن التي كانت منفصلة عن دولة الموحدين.

ووضع خطوطاً دفاعية ضد الخطر الزياني القادم من الشرق، واستطاع أن ينظم القبائل العربية ويستخدمها في محاربة الأقاليم المنفصلة عن الدولة، واستطاع أن يضم سبتة وطنجة تحت حكمه، وبذلك ضمن مفتاح العبور للأندلس وضم إقليم سجلماسة

(1) من أمثال عبد الفتاح الغنيمي، والدكتور أحمد مختار العبادي.
(2) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 207).
(3) انظر: المصدر السابق نفسه.

للدولة في صفر 673هـ/ 1274م، وبذلك أصبحت كل أراضي المغرب الأقصى تحت نفوذ الدولة المرينية، وأصبحت فاس عاصمة للدولة المرينية الجديدة. وفي عام 674هـ/ 1275م أمر السلطان المريني ببناء عاصمة جديدة وسميت البيضاء وأصبحت فاس القديمة مركزاً للتجارة والعلم[1].

ثالثاً: حركة التوحيد للشمال الإفريقي:

حاولت دولة بني مرين أن توحد الشمال الإفريقي تحت نفوذها ودخلت في معارك عنيفة مع بني عبد الواد والحفصيين في المغرب الأوسط والأدنى.

واستطاع المرينيون في عصر أبي الحسن المريني (731-752هـ-1331-1351م) وولده أبي عنان فارس (752هـ/ 1351م) أن يوحدوا الشمال الإفريقي بالقوة، وعادت وحدة الشمال الإفريقي لمدة قصيرة وأزال السلطان أبو الحسن بني زيان عن تلمسان في سنة 737هـ/ 1337م ثم أحسن إليهم وفرض لهم العطاء وتوقف عن التوسع لانشغاله بالجهاد في الأندلس، وعادت حركة التوسع في الشمال الإفريقي بعد هزيمته أمام النصارى في الأندلس، ودخل تونس في عام 748هـ/ 1347م، لتمتد مملكته من مسراته في ليبيا إلى السوس الأقصى وإلى رندة من عدوة الأندلس.

لم يتألف أبو الحسن الحفصيين والقبائل العربية بالمال والإحسان إليها، ففجروا ثوراتهم ضده واستطاعوا أن يهزموه على مقربة من القيروان.

وفي هذه الأثناء خرج عليه ولده أبو عنان وطلب الزعامة لنفسه واضطر أبو الحسن أن يتخلى عن السلطة في سنة 752هـ/ 1351م، ثم مات بعد شهور.

واصل أبو عنان حركة التوحيد لأقطار الشمال الإفريقي وأزال دولة بني زيان سنة 753هـ/ 1352م وتابع سيره إلى إفريقية، ودخل تونس في سنة 758هـ/ 1357م إلا أن انفجار الثورات على مستوى المغرب كله خصوصاً في فاس وطمع بعض أقربائه في السلطة جعله يعود إلى عاصمته، فوافاه الأجل في العام التالي[2].

وبوفاة أبي عنان انتهت المحاولات المرينية من أجل توحيد الشمال الإفريقي

---

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 219، 220، 221).

(2) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عبادة كحيلة، ص 141.

وتقلص النفوذ المريني في المغربين الأوسط والأدنى، ثم زال النفوذ المريني من جهة الشرق فلم يحاول السلاطين الذين من بعده أن يقوموا بأية غزوة في الأقاليم.

وبدأ التدهور في الدولة المرينية بعد وفاة أبي عنان بسبب تسلم أمرها سلاطين ضعاف ففقدوا المغربين الأدنى والأقصى، كما استولى البرتغاليون على مدينة سبتة سنة 818هـ/ 1415م، فكان هذا بداية لانهيار دولة بني مرين، ثم استولى البرتغاليون على جزء كبير من ساحل المغرب واحتلوا طنجة سنة 869هـ/ 1464م واقتصرت الدولة المرينية على فاس[1].

واضطربت أحوال الدولة بتعدد الثورات وتدهورت الأمور بفاس وتسلط على الأمور رجال لا هم لهم إلا مصالحهم الشخصية، وفي عهد آخر سلاطين بني مرين عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس (823 - 869هـ/ 1ي320 - 1465م) قرب اليهود من مقاليد الحكم وتسلطوا على رقاب الأهالي، فانفجرت الثورة التي عمت أحياء فاس كلها واضطروا إلى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبي عبد الله محمد بن علي الإدريسي نقيب الأشراف بفاس في رمضان (869هـ/ 1465م) وبذلك انتهت دولة بني مرين[2].

رابعاً: أسباب سقوط دولة بني مرين:

1 - دسائس ملوك الإسبان ضدها، وتحالف زعماء غرناطة معهم ضد دولة بني مرين ساهم في إضعافهم وتقويض دولتهم، ودخول حكام غرناطة في تحالفات مع بني عبد الواد والحفصيين ضد بني مرين ضيق الخناق على دولة بني مرين.

2 - دخول بني مرين في صراع عنيف مع دويلات المغرب الأوسط والأدنى، كلفها الأموال والرجال والعتاد والأوقات، وكان قتال بني العقيدة الواحدة والدين الواحد مما ساهم في إضعاف الشمال الإفريقي كله والتعجيل بسقوط دولة بني مرين.

3 - ضعف الأمراء والسلاطين في آخر عهد الدولة مما ساهم في إضعافها وتسلط الوزراء وزعماء العرب في شئونها، وتنازعت الأهواء والمصالح، فتولدت انفجارات داخلية ونزاع بين الأبناء والآباء والأعمام عجل بسقوط الدولة.

---

(1) تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر، ص 142.

(2) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 336، 337).

4 - المخاطر الخارجية والمكايد العالمية من قبل النصارى والذين شنوا حرباً على هذه الدولة التي شكلت خطراً على حركة الاسترداد في الأندلس، ولذلك هاجم البرتغاليون بني مرين واحتلوا سبتة عام 818هـ/ 1415م، فكان ذلك الاحتلال بداية الانهيار[1].

5 - تولي اليهود مناصب في دولة بني مرين، ومارس اليهود الظلم والجور على أهالي المغرب، فكان ذلك سبباً في قيام الشعب بثورة ضد دولة بني مرين وإزالتها من الوجود.

6 - أجل الله في هذه الدولة؛ لأن الدول لها آجال لا تتعداها.

وغير ذلك من الأسباب.

خامساً: الدولة الوطاسية:

ترجع الدولة الوطاسية في نسبتها إلى بني وطاس وهم فرع من بني مرين وكانوا أصحاب نفوذ وسلطان وشوكة في الدولة المرينية وأنزل بهم السلطان عبد الحق آخر سلطان للدولة المرينية نكبة عظيمة ونكل بهم أشد تنكيل، واستطاع محمد الشيخ أن يفلت من تلك التصفية الجسدية التي نزلت بقومه.

وبعد أن تولى حكم المغرب الشريف محمد بن علي الإدريسي في عام 868هـ، استطاع محمد الشيخ أن يجهز جيشاً لنزع السلطة والحكم من الإدريسي ودخل في حروب طاحنة واحتل فاس عام 877هـ/ 1472م وكلفه ذلك ضياع مدينة أصيلا من يده. استغل البرتغاليون الحرب الأهلية القائمة في المغرب وانصراف أمير أصيلا لمحاصرة فاس، فأرسلوا 477 سفينة محملة ب (30 ألف مقاتل) في زمن ملك البرتغال ألفونس الخامس، ووقعت أسرة الشيخ الوطاسي في الأسر، فاضطر للمفاوضة معهم وترتب عن تلك المفاوضات تنازل الوطاسيين عن أراض من المغرب واحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلا، وأطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته[2].

وكانت الفتن في المغرب على أشدها عندما تولى الحكم محمد الشيخ واستطاع البرتغاليون النصارى أن يتوسعوا للاستيلاء على موانىء المغرب مثل سبتة وطنجة

---

(1) تاريخ المغرب والأندلس في القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن العاشر لمجموعة من الباحثين، ص 142.

(2) انظر: موسوعة المغرب (3/ 23، 24).

وأصيلا، وتوغلت سراياهم وبعوثهم في الأطراف المجاورة التي احتلوها وكان سقوط غرناطة في فترة الوطاسيين(1492م) وقدم أهالي الأندلس في هجرات عظيمة نحو المغرب، واستمر النفوذ الإسباني والبرتغالي في التوسع وبناء الحصون والقلاع والمراكز والنقاط الإستراتيجية التي امتدت على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، وكانت هذه الموانىء والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والأساطيل البحرية البرتغالية والإسبانية في طريقها إلى الهند والشرق الأقصى، كما كانت هذه المراكز نقاطاً للتوسع إلى المناطق الداخلية ببلاد المغرب، وامتد نفوذ هذه المراكز إلى زعماء بعض القبائل والأهالي الذين تعاملوا معهم ووجدوا مصالحهم الذاتية في الخضوع لهم.

وقامت إمارات عديدة في المغرب الأقصى حملت على كاهلها مقاومة النفوذ الأجنبي في البلاد.

وظهرت قيادة السعديين كقوة حيوية، لكنها رفعت لواء الجهاد، ودعت إلى الوحدة المغربية، وتدرجت في تحقيق أهدافها واستطاعت أن تكسب ودّ الطرق الصوفية وزعماء القبائل، وتخوض حرباً جهادية ضد النصارى الإسبان والبرتغاليين وحرّروا الأراضي المحتلة، وبرز الزعيم محمد الشيخ السعدي الهاشمي القرشي في تلك المعارك واستطاع أن يسقط دولة الوطاسيين عام 956هـ.

إلا أن أبا حسون الوطاسي الذي فرّ من السعديين استطاع أن يتحالف مع العثمانيين ويهزم السعديين في فاس عام 961هـ، وأعاد زعيم السعديين الكرة من جديد وأسقط الدولة الوطاسية في نفس العام 961هـ[1].

سادساً: أسباب سقوط الدولة الوطاسية:

1 - دخولهم في معاهدات مع النصارى المحتلين من الإسبان والبرتغاليين من أجل مصالحهم وسلطتهم ونفوذهم.

2 - عجزهم عن الوقوف بجانب مسلمي الأندلس والدفاع عنهم وحمايتهم.

3 - ظهور الحركة الجهادية التي جعلت أهداف الشعب المغربي في أولوياتها. وقد تزعم تلك الحركة السعديون.

---

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 53).

4 - الضعف الاقتصادي الذي أصاب الدولة بسبب استيلاء النصارى على الحركة التجارية في الموانىء.

5 - التفكك السياسي بسبب الحروب الداخلية الطاحنة بين المغاربة.

سابعاً: السعديون:

يرجع أصل السعديين إلى الجزيرة العربية ويرجعون في نسبهم إلى الإمام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه [1] ويرى الأستاذ محمود شيت خطاب أن الدولة السعدية هي الدولة العلوية الثانية في المغرب بقطع النظر عما أرجف به خصومها من الطعن في نسبها[2]. وهي لم تعتمد في قيامها إلى (مهدوية) كاذبة، أو عصبية قوية.

وأما تسميتهم بالسعديين، فيرى الأستاذ شوقي أبو خليل أنها لم تكن لهم في القديم ولم تظهر في سجلاتهم ورسائلهم، بل لم يجترىء أحد على مواجهتهم بهذه التسمية، لأنهم إنما يصفهم بها من يقدح في نسبهم، ويطعن في شرفهم، ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ظئر[3] رسول الله ﷺ.

وكثير من العامة يعتقدون أنهم إنما سموا بذلك لأن الناس سعدوا بهم[4]، ثم استدل بقول أبي العباس الناصري السلاوي: «وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عند الخاصة والعامة، فصار كالعلم الصرف المرتجل، مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف»[5]. أما صاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبد الفتاح الغنيمي فقد ذكر نسب محمد القائم السعدي مؤسس الأسرة السعدية ورافع لواء الجهاد الإسلامي فقال: «هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد ابن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه [6]».

---

(1) انظر: وادي المخازن لشوقي أبي خليل، ص 31.
(2) قادة فتح بلاد المغرب (2/ 202).
(3) الظئر: المرضعة والعاطفة على غير ولدها.
(4) انظر: وادي المخازن لشوقي أبي خليل، ص 32.
(5) المصدر السابق، ص 32، نقلاً عن الاستقصا (5/ 6).
(6) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 114، 115).

كانت بواعث الالتفاف حول الزعامة السعدية تتمثل في حب المغاربة للجهاد ودحر المعتدين، ولذلك بحثت قبائل المغاربة عن شخص يقودهم في حركة الجهاد ضد المحتلين النصارى من الإسبان والبرتغال، فأرشدوا إلى الشريف أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله، وكان مقيماً في درعة فأرسلوا إليه فجاء إليهم، واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل وبايعوه، فكان هو واضع النواة الأولى للدولة السعدية، وشرع في حركة الجهاد ووفقه الله في معارك ضارية وحقق انتصارات رائعة على النصارى، وزحزح أقدام الغزاة النصارى من أراضي المغرب، وأصاب هيبتهم، فتيمن المسلمون بقيادته، وتفاءلوا بانتصاراته الرائعة، وظل في جهاده المبارك إلى أن توفاه الله سنة 923هـ، وخلف ولدين، وكان أبو العباس أحمد الأعراج أكبرهم، فبايعه الناس بعد والده، وحارب البرتغاليين وانتصر عليهم، وفي سنة (930هـ) دخل مراكش وجعلها عاصمة السعديين. وفي سنة (940هـ) اتفق مع الوطاسيين على اقتسام المغرب على أن يكون نصيب الأشراف السعديين من (تادلة)[1] إلى (السوس)، وللوطاسيين من (تادلة) إلى المغرب الأوسط.

وانتزع أبو عبد الله محمد الشيخ الأخ الأصغر الملك من أخيه وألقى القبض عليه واستطاع أن يقبض على الوطاسيين سنة (961هـ) ودخل مدينة فاس فصفا له ملك المغرب، ولكنه قتل سنة (964هـ) وتولى زمام الأمور من بعده ابنه عبد الله الغالب، فحارب الأتراك والبرتغاليين وتوفي سنة (981هـ)[2]، فقام على العرش بعده ولده محمد المتوكل وكان فظاً غليظاً مستبداً ظالماً، قتل اثنين من إخوته عند وصوله إلى الحكم، وأمر بسجن آخر، فكرهته الرعية[3]، وصفه السلاوي بقوله: «وكان السلطان المذكور فقيهاً أديباً مشاركاً مجيداً قوي العارضة في النظم والنثر، وكان مع ذلك متكبراً تياهاً غير مبال بأحد، ولا متوقف في الدماء، عسوفاً على الرعية، ومن شعره قوله:

فقُم بنا نصطبح صهباء صافيةً ... وفي وجهها عسجدٌ في وجهه نُقط
وانهض إليها على رغم العدا قلقاً ... فإن تأخير أوقات الصِّبا غلط

(1) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (2/ 204).
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) انظر: وادي المخازن، ص 23.

ومن شعره أيضاً:

ساروا فسار فُوادي إثر ظعنهمُ وخلفوني نحيل الجسم حيرانا
لا افتر الثرى من بعد بينهمُ ولا سقى هاطلٌ ورداً وريحانا[1].

إلا إن هذا المتعجرف السفاك للدماء لم يهنأ بملكه حيث استطاع عمه أبو مروان عبد الملك، وأبو العباس أحمد أن يتحالفوا مع الأتراك في الجزائر، وسافر أبو مروان عبد الملك إلى عاصمة الخلافة العثمانية وطلب من السلطان سليم نجدته ومعونته إلا أن السلطان العثماني انشغل بتخليص تونس من يد الإسبان، فجهز قوات عثمانية بقيادة سنان باشا واستطاعت أن تحرّر تونس من الاحتلال النصراني الإسباني، وكان أبو مروان عبد الملك في تلك الحملة وأبلى فيها بلاء حسناً، ثم كان هو أول من أبلغ بشارة الفتح إلى السلطان، فجازاه على ذلك بأن أمر صاحب الجزائر بمده بالجنود والعتاد حتى يرجع إليه حقه المغصوب في الحكم[2].

وما أن وصل جيش عبد الملك المدعوم من قبل الخلافة العثمانية فاس حتى خرج إليه ابن أخيه محمد المتوكل على الله واستطاع عبد الملك أن يستميل القوّاد والوزراء فانقادوا إليه جميعاً وبايع أهل المغرب عبد الملك بن محمد الشيخ سنة (983هـ).

ثامناً: من إصلاحات عبد الملك وأعماله:

1 - أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة، فانتعشت بذلك الصناعة عامة.

2 - اهتم بالتجارة البحرية، وكان للأموال التي غنمها من الحروب الدائمة على سواحل المغرب سبب في انتعاش ونمو الميزان الاقتصادي للدولة.

3 - أسس جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجندية العثمانية وتشبه بهم في التسليح والرتب.

4 - استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب.

---

(1) الاستقصاء (5/ 58) نقلاً عن وادي المخازن، ص 34.

(2) انظر: قادة بلاد المغرب (2/ 204).

5 - فرض احترامه على أهل عصره، حتى الأوروبيين احترموه وأجلوه.

قال الشاعر الفرنسي أكبريبا دو بيني المعاصر لأحداث هذه الفترة: «كان عبد الملك جميل الوجه؛ بل أجمل قومه، وكان فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الإسبانية والإيطالية والأرمينية والروسية، وكان شاعراً مجيداً في اللغة العربية، وباختصار، فإن معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذا أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل، فأحرى لملك»[1].

6 - اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية، وأحوال السكان عامة، وعلى اطلاع ودراية بالسياسة الدولية، وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربية وكان أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الأيمن في كل شئون الدولة[2].

تاسعاً: معركة وادي المخازن:

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبد الملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادي المخازن بتاريخ: 30 جمادى الثانية 986هـ الموافق: 4 آب (أغسطس) 1578م.

ولقد كان لتلك المعركة أسباب من أهمها:

1 - أراد البرتغاليون أن يمحوا عن أنفسهم العار والخزي الذي لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة والتي جعلتهم ينسحبون من أسفى وأزنور وأصيلا وغيرها في زمن يوحنا الثالث آب (1521 - 1557م).

2 - أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان بن يوحنا أن يخوض حرباً مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنه بين ملوك أوروبا، وزاد غروره بعد ما حققه البرتغاليون من اكتشافات جغرافية جيدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامي، يدفعه في ذلك حقده على الإسلام وأهله عموماً، وعلى المغرب خصوصاً، لقد جمع ذلك

(1) انظر: وادي المخازن، ص 37.

(2) المصدر السابق، ص 39، 40.

الملك البرتغالي بين الحقد الصليبي والعقلية الاستعمارية التي ترى أن يدها مطلقة في كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة أخرى، فخطط لغزو واحتلال المغرب[1].

وشجع ملك البرتغال مجيء المتوكل (المخلوع) وطلبه للعون من النصارى والوقوف معه من أجل استرداد ملكه والقضاء على عمّيه عبد الملك المعتصم بالله، وأحمد المنصور، مقابل أن يتنازل له عن موانىء وشواطىء المغرب «فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل، وله ما وراء ذلك»[2].

1 - حشود النصارى:

استطاع سبستيان أن يحشد من النصارى عشرات الألوف من الإسبان والبرتغاليين والطليان والألمان وجهز هذه الألوف بكافة الأسلحة الممكنة في زمنه، وجهز ألف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب[3].

ووصلت قوات النصارى إلى طنجة وأصيلا في عام 1578م.

2 - الجيش المغربي:

كانت الصيحة في جنبات المغرب الأقصى: «أن اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله».

والتقت جموع المغاربة حول قيادة عبد الملك المعتصم بالله، وحاول المتوكل المسلوخ أن يخترق هذا التلاحم فكتب إلى أهل المغرب: ما استصرخت بالنصارى[4] حتى عدمت النصرة من المسلمين، وقد قال العلماء: إنّه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه»، وتهدّدهم قائلاً: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: 279][5].

فأجابه علماء الإسلام عن رسالته، برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيها: «الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على

(1) انظر: وادي المخازن، ص 45، 46.
(2) انظر: الاستقصاء (5/ 69) نقلاً عن وادي المخازن، ص 46.
(3) انظر: وادي المخازن، ص 49.
(4) سمى النصارى أهل العدوة واستنكف عن تسميتهم نصارى.
(5) انظر: وادي المخازن، ص 51.

سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرضى عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر، فما نصروه، ولا استنصروا به، حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحّته وكماله.

وبعد، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب. لو رجعت على نفسك اللّوم والعتاب، لعلمت أنك المحجوج والمصاب...

وأمّا قولك: في النصارى فإنك رجعت إلى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، ففيه المقت الذي لا يخفى، وقولك: رجعت إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله، أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلّهم على ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله، والثاني: أنك استعنت بالكفار على المسلمين.. قال عليه الصلاة والسلام: «**إني لا أستعين بمشرك**..» الاستعانة بهم - بالمشركين - على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً: لسان العاقل من وراء قلبه.. وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله؟.

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الإسلامية، والحمية الإيمانية، وتجدد لهم نور الإيمان، وأشرق عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: لا دين إلا دين محمد ﷺ، ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء، ومن قائل يقول: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: 11].

وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك، وعوّلت على بلوغ الملك بحشودهم، وأنى لك هذا مع قول الله تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 32] [1]». ولما عاين أهل القصر الكبير النصارى واستبطئوا وصول السلطان عبد الملك أرادوا الفرار والتحصن في الجبال، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي بتثبيت الناس.

وكتب عبد الملك المعتصم بالله من مراكش إلى سبستيان: «إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة، فإن ثبتّ إلى أن نتقدم عليك، فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلا فأنت كلب بن كلب»[2]. فليس من الشجاعة، ولا

(1) الاستقصا (5/ 79) نقلاً عن وادي المخازن، ص 53.

(2) انظر: وادي المخازن، ص 53.

من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن والعزَّل، ولا ينتظر مقابلة المحاربين وكان لذلك الخطاب أثر في غضب سبستيان وقرر أخيراً التريث رغم مخالفة أركان جيشه الذين أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرايش والقصر[1].

وتحركت قوات عبد الملك المعتصم بالله، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وما حولها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

3 - قوى الطرفين (البرتغالي النصراني والإسلامي المغربي):

الجيش البرتغالي:

000, 125، وما يلزمهم من المعدات، والرواية الأوروبية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها، وتضخم عدد جيش المغرب، فهي تتحدث عن 000, 14 راجل ، و2000 فرس، و36 مدفعاً، مقابل : 000, 50 راجل في الجيش المغربي، و000, 22 فارس، و500, 1 من الرماة، و20 مدفعاً.

ذكر أبو القاضي في «المنتقى المقصور»: عدد الجيش البرتعالي مائة ألف وخمسة وعشرون ألفاً[2].

وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في «مرآة المحاسن»:

إن مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفاً، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل[3].

كان مع الجيش البرتغالي : 000, 20 إسباني، 3000 ألماني، 7000 إيطالي. وغيرهم عدد كبير، مع ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعاً . . . وكل هذه القوى البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان. وكان معهم المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراوح ما بين : 300 - 600 رجل على الأكثر[4].

الجيش المغربي:

وكان جيش المغاربة تعداده 000, 40 مجاهد، يملكون تفوقاً في الخيل ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعاً فقط وكانت معنوياتهم مرتفعة جداً بسبب:

---

(1) انظر: وادي المخازن، ص 54.

(2) انظر: الاستقصاء (5/ 69) نقلاً عن وادي المخازن، ص 56.

(3) انظر: الاستقصاء (5/ 69) نقلاً عن وادي المخازن، ص 56.

(4) انظر: وادي المخازن، ص 56.

1 - أنهم ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارى المحتلين واستخلصوا من أيديهم ثغوراً كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية، والحصون المنيعة، والخنادق العميقة.

2 - التفاف الشعب حول القيادة، حيث تم التحام بين القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن لأن المعركة كانت حاسمة في تاريخ الإسلام وفاصلة في تاريخ المغرب، وكان الشيخ أبو المحاسن الفاسي زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكل ولا يمل في شحذ الهمم ورفع المعنويات وقاد هذا الشيخ (أبو المحاسن يوسف الفاسي) أحد جناحي الجيش المغربي وأبلى بلاءً حسناً رائعاً وثبت إلى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون، وتورع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم، وعف عنها، ولم يأخذ منها شيئاً[1].

وأظهر عبد الملك المعتصم بالله عبقرية فذة في المعركة، وكذلك أخوه أبو العباس أحمد الذهبي.

«لقد حنكت التجارب عبد الملك المعتصم بالله، فعزل عدوّه عن أسطوله بالشاطىء بمكيدة عظيمة، وخطة مدروسة حكيمة، عندما استدرج سبستيان إلى مكان حدده عبد الملك ميداناً للمعركة. وكان عزله عن أسطوله محكماً عندما أمر عبد الملك بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدمها»[2].

لقد جعل عبد الملك المدفعية في المقدمة، ثم صفوف الرماة المشاة وجعل قيادته في القلب وعلى المجنبتين رماة فرسان والقوى الإسلامية المتطوعة وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقض في الوقت المناسب وهي في غاية الراحة لمطاردة فلول البرتغاليين، واستثمار النصر[3].

كان صباح الإثنين 30 جمادى الآخرة 986هـ/ 1578م يوماً مشهوداً في تاريخ المغرب، ويوماً خالداً في تاريخ الإسلام. وقف السلطان عبد الملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه، مذكراً بوعد الله للصادقين المجاهدين بالنصر[4] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40].

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 10].

---

(1) انظر: وادي المخازن، ص 58.

(2) و(3) و(4) انظر: وادي المخازن، ص 62.

كما ذكرت بوجوب الثبات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: 15].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45].

وبضرورة الانتظام:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4].

وذكر أيضاً حقيقة لا مراء فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم للإسلام بعدها قائمة.

ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز، فاشتاقت النفوس للشهادة[1].

ولم يأل القسس والرهبان جهداً في إثارة حماس جند أوروبة الذين يقودهم سبستيان، مذكرين أن البابا أحل من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه الحروب التي اتسمت بطابع الحروب الصليبية.

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذاناً ببدء المعركة.

لقد قام السلطان عبد الملك برد الهجوم الأول منطلقاً كالسهم شاهراً سيفه يمهد الطريق لجنوده إلى صفوف النصارى، وغالبه المرض الذي سايره من مراكش ودخل خيمته وما هي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة الفدى، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلاً: ومتى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله؟ وأمر هذا القائد المجاهد عجيب في الحزم والشجاعة، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبابته على فمه مشيراً أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر، ولا يضطربوا وكان كذلك، فلم يعلم أحد بموته إلا أخوه المنصور وحاجبه رضوان العلج، وصار حاجبه يقول للجند: «السلطان يأمر فلاناً أن يذهب إلى موضع كذا، وفلاناً يلزم الراية، وفلاناً يتقدم وفلاناً يتأخر»[2].

وقاد أحمد المنصور مقدمة الجيش وصدم مؤخرة الجيش البرتغالي، وأوقدت النار في برود النصارى، وصدم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعى، وولى

(1) انظر: وادي المخازن، ص 64.

(2) الاستقصاء (5/ 80) نقلاً عن وادي المخازن، ص 66.

الباقون الأدبار قاصدين قنطرة نهر وادي المخازن وكانت تلك القنطرة أثر بعد عين، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم، فارتموا بالنهر، فغرق من غرق وأسر من أسر، وقتل من قتل، وصُرع سبستيان، وألوف من حوله، ووقع المتوكل رمز الخيانة غريقاً في نهر وادي المخازن.

واستمرت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة، وكتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين[1].

جاء في «درة السلوك» لأحمد بن القاضي، وهو معاصر لأحداث المعركة «مخطوطة بدار الوثائق بالرباط، د428، ص 14»[2].

وابن أخيه[3] بالنصارى اعتصما ... وصار يستنجدهم لمن سما
أجابه اللعين بستيان[4] ... بجيشه ومعه الأوثان
وعدد الجيوش الذي جمعا ... ينيف عن مائة ألف سُمعا
فقيض الله له المنصورا[5] ... ملكاً شجاعاً أسداً هصورا
فخلص الإسلام من يد اللعين ... بصبره على لقاء المشركين
ما منهم إلا قتيل وأسير ... في ساعة من الزّمان[6] ذا شهير
مات بها بستيان اللعين ... فما له عن الرّدى معين
ثم محمد[7] الذي أتى به ... مات غريقاً[8] يومه فانتبه
لحكمة الله العظيم القاهر ... أفادهم وزيّن المنابر
بذكر عمّه أبي العباس ... الحازم الرأي شديد الباسِ

(1) انظر: وادي المخازن، ص 66، 67.
(2) دعوة الحق، السنة 19، العدد 8، رمضان 1398هـ، ص 56، نقلاً عن وادي المخازن، ص 67.
(3) إشارة إلى المتوكل.
(4) بستيان (لضرورة الوزن) وإلا فهو سبستيان.
(5) أحمد المنصور، أخو عبد الملك المعتصم بالله قاد المعركة بعد وفاة أخيه، وكان جديراً بالشاعر أن يذكر عبد الملك الذي هيأ وخطط للمعركة.
(6) إشارة إلى قصر مدة المعركة.
(7) محمد المتوكل المسلوخ.
(8) في نهر وادي المخازن.

نجلُ الرسول المصطفى المختار به زها المغربُ على الأقطار[1]

عاشراً: أسباب نصر وادي المخازن:

1 - القيادة الحكيمة التي تمثلت في زعامة عبد الملك المعتصم بالله وأخيه أبي العباس، ولحاجبه المنصور، وظهور مجموعة من القادة المحنكين من أمثال: أبي علي القوري، والحسين العلج، ومحمد أبي طيبة، وعلي بن موسى، الذي كان عاملاً على العرائش.

2 - التفاف الشعب المسلم المغربي حول قيادته بسبب الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي والذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوى الشعبية.

3 - رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم، والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، والانتقام من النصارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين الذين تحت حكمهم في الأندلس.

4 - اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية، وشارك كذلك مجموعة من الأندلسيين تميزوا بالرمي والتصويب بدقة مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية.

5 - الخطة المحكمة التي رسمها عبد الملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج خصومه إلى ميدان تجول فيه الخيل وتصول، مع قطع طرق تموينه وإمداده ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن.

6 - القدوة والأسوة المثالية التي ضربها للناس كل من عبد الملك وأخيه أحمد المنصور حيث شاركوا بالفعل والسنان في القتال فكان حالهما له أثر أشد في اتباعهم من قولهم.

7 - تفوق القوات المغربية بالخيل حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ويطوقوا النصارى المنهزمين ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أي فرصة في الفرار.

8 - استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال دولته مما جعل القلوب تتنافر.

---

(1) برده الغزو الصليبي وانتصاره الباهر في معركة وادي المخازن.

9 - وعي الشعب المغربي المسلم بخطورة الغزو النصراني البرتغالي وقناعته بأنه جهاد في سبيل الله ضد غزو صليبي حاقد[1].

10 - دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم. وغير ذلك من الأسباب.

الحادي عشر: نتائج المعركة

1 - أصبح سلطان المغرب بعد عبد الملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة، وذلك يوم الإثنين 30 جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسعمائة للهجرة.

2 - وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السلطان أحمد الذهبي إلى مقر السلطنة العثمانية، في زمن السلطان مراد خان الثالث، وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورة للمغرب، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد في ديارهم، ووردت الرسل من سائر الأقطار مهنئين ومباركين للشعب المغربي نصرهم العظيم.

3 - ارتفع نجم الدولة السعدية في أفق العالم وأصبحت دول أوروبة تخطب ودّها، واضطر ملك البرتغال الجديد «الريكي» أن يرسل وفداً إلى المغرب وكذلك ملك الإسبان محملة وفودهم بالهدايا الثمينة.

ثم قدمت رسل السلطان العثماني مهنئة ومباركة ومعهم هداياهم الثمينة[2].

وبعدها رسل ملك فرنسا وأصبحت الوفود «تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور»[3].

4 - سقط نجم نصارى البرتغال في بحار المغرب واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم، وتهاوت قوتهم.

يقول لويس مارية - المؤرخ البرتغالي - واصفاً نتائج المعركة:

«وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الأعصار، العصر الذي لو وصفته - كما وصفه غيره من المؤرخين - لقلت: هو العصر النحس البالغ في النحوسة، الذي انتهت فيه

(1) انظر: وادي المخازن، ص 72 - 75.
(2) انظر: وادي المخازن، ص 70.
(3) الاستقصاء (5/ 92) نقلاً عن وادي المخازن، ص 70.

مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم، وخلفها الفشل، وانقطع الرجاء، واضمحل إبان الغنى والربح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب»[1].

5 - مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك، صليبي حاقد سبستيان ملك البرتغال، ملك مخلوع خائن محمد المتوكل، مجاهد شهيد عبد الملك المعتصم بالله.

6 - سارع البرتغاليون النصارى بفكاك أسراهم ودفعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

7 - سادت فترة هدوء ورخاء وبناء وازدهار في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب.

8 - حدث تحول جذري في التفكير والتخطيط - على مستوى أوروبا. حيث رأوا أهمية إتقان الغزو الفكري لبلاد المسلمين، لأن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الإسلامية في المشرق والمغرب[2].

الثاني عشر: السلطان أبو العباس أحمد المنصور بالله الذهبي:

ولد أبو العباس أحمد المنصور بالله بفاس سنة 956هـ / 1549م. أبوه محمد المهدي، وأمه بربرية الأصل لها أوقاف بمراكش معروفة لدى المغاربة[3].

درس في مراكز علمية عديدة ومن أهم هذه المراكز: «فاس، ومراكش بتارودانت...» ودرس علوم اللغة والأدب والتاريخ والتراجم والفقه والحديث والمنطق والبلاغة والفلك والرياضيات والأصول والتفسير.

أ - من أشهر شيوخه:

1 - أبو العباس أحمد بن علي المنجور، المعروف بتبحره في العلوم واهتمامه بالفنون، وتوسعه في علم النحو والبلاغة والمنطق وعلم الكلام.

---

(1) الاستقصاء (5/ 85 - 86) نقلاً عن وادي المخازن، ص 71.

(2) انظر: وادي المخازن، ص 76.

(3) انظر: وادي المخازن، ص 37، نقلاً عن الاستقصاء (5/ 136).

2 - شقروان بن هبة الله الوهراني، درس عليه الفقه والتفسير وغيرها من العلوم.

3 - أبو زكريا يحيى السراج.

4 - محمد بن يوسف الدرعي.

5 - سليمان بن إبراهيم.

6 - موسى الروداني[1].

ب - من مؤلفات أبي العباس أحمد المنصور:

1 - «المعارف في كل ما تحتاج الخلائق» يتكلم هذا الكتاب عن فقه الدولة وسياستها ويهتم بالطرق العلمية لصناعة الأسلحة والذخيرة، وبناء نقاط للدفاع، ويهتم بالطرق التقنية ويرسم التفكير الإستراتيجي القتالي.

2 - مؤلفه في دراسة الحديث النبوي: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»[2].

3 - كتابات أدبية وشعرية متميزة، تظهر فيها المحسنات البديعية أحياناً[3].

وصفه السلاوي فقال: «نشأ المنصور في عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافنة[4] لأهله عليه، وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من نعومة أظفاره[5]. كان طويل القامة ممتلىء الخدين، واسع المنكبين، تعلوه صفرة رقيقة، أسود الشعر، أدعج أكحل، ضيق البلج[6] براق الثنايا، حسن الشكل، جميل الوجه، ظريف المنزع، لطيف الشمائل»[7].

ج - إدارته للدولة:

استمر على منهج أخيه في بناء المؤسسات واقتناء ما وصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الإدارة والقضاء والجيش، وترتيب وتنظيم الأقاليم التابعة للدولة.

---

(1) انظر: وادي المخازن، ص 38.

(2) حاول أن يزيح بعض الإشكالات العلمية المتعلقة ببحث الحديث والفقه.

(3) انظر: وادي المخازن، ص 38.

(4) ثافن الرجل: لازمه حتى عرف باطن أمره.

(5) أي: طفولته.

(6) البلج: تباعد ما بين الحاجبين.

(7) انظر: وادي المخازن، ص 39.

وكان أحمد المنصور يتابع وزراءه وكبار موظفيه ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية، أو التأخير في الرد على المراسلات الإدارية والسياسية.

وأحدث حروفاً لرموز خاصة بكتابة المراسلات السرية حتى لا يعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو، وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الأمن والاستخبارات التي تحمي به الدولة من الأخطار الداخلية والخارجية.

واهتم بالجهاز القضائي، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية تماماً، ومنع السلطة التنفيذية من التدخل في السلطة القضائية.

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوروبي والقضاء المغربي في القرنين 11و12هـ (16و17م) فقال: «في الوقت الذي كانت أوروبة في العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا، فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم»[1].

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله في جامع القصبة في مراكش، بجوار قصره، وشكل لجنة تراقب مجرى القضاء في الأقاليم ويهتم بمطالعة ودراسة تقاريرهم بعناية واهتم بضبط الإدارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه.

وعمل على إقامة محطات في أرجاء البلاد، يحرسها جنود مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كيلو متراً بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن تمر القرى والبوادي بأمن وسلام.

وطور عمل المؤسسات الاستشارية وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملاء، واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية، ولو كانت ضد المجلس كله أوبعض رجاله.

وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الأفق بحيث يسمح بدخول المختصين أو ممثلين المدن والمراكز القروية عندما يقتضي الأمر استشارات على نطاق شعبي واسع[2].

(1) انظر: دعوة الحق نقلاً عن وادي المخازن، ص 41.

(2) انظر: وادي المخازن، ص 42، 43.

وطور السلطان أحمد المنصور جيش دولته واقتدى بالنظام العثماني في التسليح والرتب واللباس واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية وأثبتت الأيام أنه أهل لذلك، ومن أهم هذه القيادات: إبراهيم بن محمد السُفياني قائد الجبهة الأمامية في وادي المخازن، وأحمد بن بركة، وأحمد الحداد العمري المعقلي.

ودعّم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم وأقام مستشفيات متنقلة ميدانية تستقبل الجرحى والمرضى في الحروب واهتم بتأهيل التقنيين المتخصصين في جيشه، وقام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول، خصوصاً في ميناءي العرائش وسلا[1].

ومد نفوذ الدولة السعدية نحو الجنوب وضم بلاد السودان الغربي إلى نفوذه ودخل في لعبة الموازنات الدولية بين الإسبان والإنجليز والأتراك، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة، واستطاع أن يحقق الأمن والازدهار والرفاه والخصب لبلاده[2].

الثالث عشر: انهيار الدولة السعدية:

بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي في عام 1012هـ/ 1603م دخل المغرب في حالة من الضعف والتفكك آل به الأمر إلى سقوط الدولة السعدية وقد كان لذلك السقوط عدة عوامل منها:

1 - الصراع المرير على كرسي الحكم بين أبناء الأسرة السعدية من الأسباب القوية التي عجلت بنهاية الأسرة سريعاً وانهيارها.

2 - ساهم ذلك الصراع في قيام الثورات والحركات الانفصالية والإمارات المستقلة عن الحكومة المركزية في المغرب الأقصى، وانشغل الأمراء السعديون بالصراع فيما بينهم عن أحوال الرعية والعدو الخارجي.

3 - دخلت الولايات والإمارات المنفصلة في نزاع عسكري فيما بينها من أجل الحدود والتوسع كل إمارة على حساب الأخرى ولم تكن هذه الإمارات في وئام فيما بينها.

---

(1) وادي المخازن، ص 44.

(2) انظر: تاريخ عصر النهضة الأوروبية، د. نور الدين حسام، ص 456، 457، 458.

4 - ظهور إمارة قوية بقيادة الأسرة العلوية الشريفة أخذت تسعى لتوحيد المغرب.

5 - تولى الزعامة السعدية أبو العباس أحمد وكانت قد وصلت الدولة في عهده إلى حالة من التردي والضعف والانهيار حيث لا يزال طفلاً صغيراً وكان أخواله من العرب الشبانات لهم تطلع للوصول للحكم انتهى الأمر بأن قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدي آخر السلاطين السعديين عام 1069هـ/ 1658م وأزالوا نهائياً معالم الأسرة السعدية بمقتل أبي العباس واستيلاء عرب الشبانات على مقاليد الأمور في لبلاد، وبايعوا إبراهيم عبد الكريم زعيم القبيلة وكان من الطبيعي أن تسقط تلك لقبيلة؛ لأنها لم تملك القوة القيادية بحيث تتصدر العمل السياسي في هذه المرحلة لحاسمة والمليئة بالصراع والتمزق على الساحة الداخلية والخارجية، وسقطت تلك لقبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام 1075هـ - 1412هـ وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش، ولا تزال أسرة الأشراف العلويين في حكم البلاد إلى يومنا هذا[1].

(1) انظر: موسوعة المغرب العربي (3/ 348).

المبحث الثالث

بنو عبد الواد (بنو زيان)

أولاً: نشأة دولتهم:

كان بنو زيان ولاة للجزائر من قبل الموحدين، وعندما ضعف أمر الموحدين انفصلوا بالمغرب الأوسط وجعلوا مجينة تلمسان عاصمة لهم وترجع أصولهم إلى قبائل زناتة الكبرى وعرفوا في كتب التاريخ ببني عبد الواد[1].

وكان بنو عبد الواد من أمراء القبائل الرحل التي تنتقل في الصحراء الكبرى خلف الماء والكلأ والمراعي ثم ساعدتهم الظروف والأحوال التي مرت بها المغرب على الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلاثمائة سنة تقريباً. وكان استقرار قبائل عبد الواد في سواحل المغرب الأوسط واستطاعوا أن يفرضوا أنفسهم بالقوة على أهالي هذه البلاد وأصبحوا فيما بعد سادة المغرب الأوسط.

انفصل زعيم بني عبد الواد يغمر اسن بن زيان عن دول الموحدين وأبقى الطاعة الشكلية لها إلى أن سقطت فعلياً وحكم زعيم بني عبد الواد ما يقارب الخمسين سنة (633هـ/ 1235م - 681هـ / 1282م) كان يغمر اسن يدرك صعوبة الموقف الذي أصبح فيه، لكون دولته أصغر دويلات الشمال الإفريقي وأقلها قوة، وأيقن بالخطر القادم من المغرب الأقصى بعد صعود نجم قبائل بني مرين، لذلك تحالف مع خلفاء الموحدين لكسر شوكة المرينيين، إلا أن تلك الأحلاف لم تستمر وانتهت بوصول بني مرين إلى الحكم بعد إسقاطهم للموحدين.

وأرادت الدولة المرينية أن تأمن حدودها الشرقية ودخلت في صراع عنيف وقتال مرير مع بني عبد الواد الذين هزموا في عام 670هـ/ 1271م أمام الضربات المرينية قرب وجدة ثم تحركت القوات المرينية نحو تلمسان، وضربت عليها حصاراً استمر لمدة عام كاملاً، ثم رفع حتى تتفرغ الدولة المرينية للاستيلاء على ما تبقى من أقطار المغرب الأقصى[2].

---

(1) انظر: تاريخ قادة بلاد المغرب (2/ 234).

(2) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، ص134.

وكان من سعد بني عبد الواد أن انشغل المرينيون بالجهاد في بلاد الأندلس. وتحالف بنو عبد الواد مع بني الأحمر لما ساءت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر بفعل العمل الاستخباراتي النصراني الإسباني.

وقام بنو عبد الواد بالهجوم على حدود الدولة المرينية فاضطر المرينيون أن يعودوا لحرب بني عبد الواد وألحقوا بهم هزائم في عام 679هـ/ 1280م.

وكان بنو عبد الواد يجدون في الصحراء الواسعة ملاذاً لهم عندما يشتد خطبهم وتنكسر حشودهم، وتنهزم قواتهم أمام المرينيين، ثم ينتظرون الوقت المناسب والفرصة الملائمة ليعودوا إلى مدنهم في المغرب الأوسط.

كان بنو عبد الواد ينتهزون الفرص التي تحدث بين أبناء البيت المريني، فيناصرون فريقاً على حساب آخر، كما كانوا يدخلون في أحلاف ضد المرينيين مع الحفصيين الذين رأوا في بقاء بني عبد الواد درعاً حصيناً بينهم وبين بني مرين إلا أن تلك الحالة لم تستمر طويلاً حيث دخلت الدولتان في صراع عنيف ضد بعضهم البعض وإن كان أخف من الصراع مع المرينيين.

واستطاعت الدولة المرينية أن تزيل الوجود الزياني والحفصي وتوحد المغرب كله في زمن أبي الحسن المريني في عام 737هـ/ 1337م إلا أن تلك الوحدة لم تستمر بسبب عوامل مرت بنا.

لقد تعرضت دولة بني عبد الواد للانهيار أكثر من عشرين مرة ومع ذلك استطاعت أن تبقى في حكم المغرب الأوسط لمدة ثلاثة قرون، ويرجع ذلك إلى أسباب منها[1]:

1 - ظهور الزعيم يغمر اسن بن زيان والذي استمر في الحكم لمدة نصف قرن يقول ابن خلدون عنه: «كان يغمر اسن بن زيان من أشد بني عبد الواد بأساً وأعظمهم في النفوس مهابة وإجلالاً، وأعرفهم بمصالح قبيلته، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده، وكان مرموقاً بعين التجلة، مؤملاً للأمر عند المشيخة، تعظمه من أمره الخاصة وتضرع إليه في نوائبها العامة، فلما تولى الأمر بعد أخيه قام به أحسن قيام واضطلع بأعبائه وظهر على

(1) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، ص 136.

الخارجين وأصارهم في جملته وتحت سلطانه، وأحسن السيرة في الرعية بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار واتخذ الآلة ورتب الجند والمسالح وفرض العطاء[1].

2 - حصانة مدينتهم وموقعها الوعر، وخصوبة الإقليم المحيط بها، وصبرهم ومصابرتهم في القتال وتحملهم للحصار.

3 - حسن سياستهم مع القبائل العربية الهلالية، فمنحوهم إقطاعات واسعة وأكرموهم بالأموال والعطاء فكانوا من الأسباب الظاهرة في حماية الدولة.

4 - إسناد مرافق الدولة إلى الأندلسيين الذين هاجروا من ظلم النصارى الإسبان وجورهم وتعسفهم، فاستفادت الدولة من خبرتهم في الوزارة، وفي الحياة المعمارية، والحياة الثقافية.

5 - اهتمامها بالتجارة واستفادوا من موقع تلمسان الذي كان محطة بين إفريقية المدارية وأوروبا، فكان يتم التبادل بين التجار بين ما يحملوه من إفريقيا من تبر ورقيق وجلود وعاج وبين ما يحمله التجار من أوروبا وأخصها السلاح.

فهيأت الدولة الأمن للتجار وخفضت عنهم الضرائب، واكتفت بما تحصله من رسوم فكان للتجارة سبب في ازدهار الدولة وحصولها على الأموال اللازمة.

6 - اهتمام الدولة بالعلماء والأدباء والشعراء حتى أن يحيى بن خلدون (ت 780هـ) وهو أخ المفكر الكبير والمؤرخ المعروف ابن خلدون استطاع أن يصل إلى وظيفة الحجابة في زمن الأمير أبي حمو موسى الثاني (753هـ/ 1352م - 791هـ/ 1389م) وكان هذا الأمير محباً للعلماء والأدباء وكان هو نفسه أديباً شاعراً وله كتاب اسمه: «نظم السلوك في سياسة الملوك» ووقف مع غرناطة في جهادها بالمال والرجال[2].

وفي عهد بني زيان على العموم نبغ جماعات من أشهر العلماء والأدباء والكتاب والمفكرين، ولعل في قمة هؤلاء عبد الرحمن الثعالبي مؤلف الجواهر الحسان، والمقري مؤلف نفح الطيب، كما امتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التي تعتبر من آيات الفن المعماري العربي، وأجريت على طلبتها وشيوخها الأرزاق[3].

---

(1) ابن خلدون في تاريخه (7/ 79).

(2) المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، ص 136.

(3) موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي (4/ 252).

ثانياً: التنظيم الإداري في عهد بني عبد الواد:

قسمت السلطات في الدولة إلى:

1 - السلطة العسكرية ويتولاها صاحب السيف.

2 - السلطة الإدارية ويتولاها صاحب القلم.

3 - السلطة القضائية ويتولاها قاضي القضاة.

4 - السلطة المالية ويتولاها صاحب المال.

ويتابع مسئولي السلطات السابقة شخص يطلق عليه (مزاول) وله حق الإشراف على كل هؤلاء وهو ما يعرف في زماننا رئيس الوزراء وفي كل مدينة أو قبيلة كان يوجد الحافظ (الوالي) وهو حافظ النظام الإسلامي، وإلى جانبه المحتسب وهو المشرف على الحسبة، والقاضي وغيرهم من موظفي الدولة وجباة الضرائب[1].

ثالثاً: أسباب السقوط لبني عبد الواد:

1 - النزاع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة من أجل الوصول إلى الحكم.

2 - قتال الحفصيين لهم في عهد أبي فارس عبد العزيز وعهد أبي عمر وعثمان أضعف الدولة وخلخل بنيتها القائمة عليها.

3 - ظهور دويلات على الساحل انفصلت عن قلب الدولة في تلمسان.

4 - مجيء الغزو الصليبي النصراني الإسباني واحتلالهم بجاية سنة 910هـ/ 1504م ثم استيلاؤهم على وهران 914هـ، ثم سعيهم للاستيلاء على الجزائر وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الإسبانية[2]، وعجز بنو عبد الواد في التصدي لهم.

5 - ظهر على الساحة المجاهدون المسلمون الذين ينتمون إلى الدولة العثمانية وكان على رأسهم خيرالدين بربروسة الذي استطاع أن يضع حداً لعدوان الإسبان وانتهى الأمر بزوال دولتي بني زيان في عام 926هـ/ 1554م ودخول المغرب الأوسط تحت الحكم الإسلامي العثماني والذي استطاع أن يهزم الإسبان[3] وكان تفاعل أهالي

---

(1) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي (252، 253).

(2) انظر: المغرب الكبير (2/ 875).

(3) المصدر السابق.

المغرب الأوسط مع الدولة العثمانية عظيماً؛ لأن المسلمين العثمانيين دحروا الإسبان وهزموهم وخلصوا البلاد من التواكل والتخاذل الذي أخلد إليه بنو عبد الدار، فكان ذلك التخاذل والتواكل سبباً في تجرؤ الإسبان على احتلال وهران واعتدى الجيش الإسباني النصراني على حرمات الدين والأعراض والنفوس والأموال وارتكبوا الفواحش، وقتلوا نحو ثمانية آلاف من الأطفال والشيوخ والنساء، وانتهكت حرمات المساجد والبيوتات الشريفة، وفي أواخر رمضان سنة915هـ/ 1511م اقتحم النصارى الإسبان أسوار (بجاية) وحطموا الجامع الأعظم فيها وكثيراً من معالم المدينة[1].

فكان من الطبيعي أن يفرح أهالي المغرب الأوسط لمجيء إخوانهم في العقيدة والدين الذين جاءوا من أجل الدفاع عن الإسلام وأهله في الشمال الإفريقي.

(1) انظر: قادة فتح المغرب العربي (2/ 235).

obeikandl.com

المبحث الرابع

الدولة الحفصية

أولاً: النشأة

اختلف علماء التاريخ في نسب أمراء بني حفص، فمنهم من أرجعهم إلى عمر ابن الخطاب كابن نخيل، الذي يعتبر أول كاتب لديوان الدولة الحفصية[1].

ومنهم من أرجعهم إلى قبيلة هنتاتة، التي تعتبر من أهم قبائل المصامدة على وجه الخصوص، ومن أكبر قبائل البربر في المغرب على وجه العموم.

وموطنها بجبال درن القريبة لمراكش، ويعتبر أبو حفص من زعماء المصامدة وله مكانة ونفوذ بين قبائل المصامدة وهو من خواص ابن تومرت، وآمن بدعوته وبذل قصارى جهده في مناصرته، وكان يأتي بعد عبد المؤمن في المنزلة عند الموحدين، من غير منازع، ويشترك معه في الألقاب الرئاسية، فبينما كان ابن تومرت يسمى بالإمام، وعبد المؤمن بن علي بالخليفة كان يسمى هو بالشيخ[2]. وبلغ من احترام عبد المؤمن له وحسن تقديره إياه أن كان يأخذ برأيه في كل مشاكل الحكم، وأكرم أولاده من بعده وأسند لهم المناصب والإمارة في الأندلس وإفريقية.

وعندما تولى الخلافة الموحدية الناصر بن المنصور[3] أسند إلى أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي أمر إفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها كي يستطيع القيام بأعبائها ويقضي على الفتن والثورات المستمرة هناك بزعامة بني غانية وأحلافهم من العرب.

وكان من شروط أبي محمد الحفصي على الخليفة الموحدي، أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال وتنقطع أطماع بني غانية عنها، وأن يحكمه الناصر فيمن

---

(1) ابن خلدون، تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب (1/ 374).

(2) انظر: بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 220.

(3) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي، ص 121.

يبقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل، فقبل الناصر شروطه، ومن هنا ورث الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية[1].

ويعتبر الانفصال الرسمي عن الدولة الموحدية بالنسبة للحفصيين على يد أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي سنة 626هـ/ 1229م[2].

وكانت هناك عدة أسباب شجعت الأمير أبا زكريا بن عبد الواحد الحفصي على الانفصال، منها:

1 - انهيار دولة عبد المؤمن في المغرب والأندلس عقب الهزيمة التي حاقت بجيوشها في موقعة العقاب سنة 1212م.

2 - رفض الخليفة الموحدي إدريس المأمون في عام 626هـ/ 1229م لتعاليم ابن تومرت ثم أزال اسمه من السكة والخطبة.

3 - قتل الخليفة الموحدي إدريس أشياخ الموحدين الذين عارضوا سياسته ومعظمهم من هنتاتة، قبيلة الحفصيين.

فاستغل أبو زكريا عبد الواحد الموقف المتأزم ورفض مبايعة الخليفة إدريس المأمون، واتخذ الأسباب المذكورة ذريعة للخروج عن طاعة عبد المؤمن والاستقلال بولايته واعتبر نفسه أحق بميراث فكر وعقائد وأهداف حركة ابن تومرت، ولذلك حرص الحفصيون منذ إعلانهم للانفصال على التمسك بتعاليم ابن تومرت، وذكروا اسمه في الخطبة والسكة، كما طبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة. وإن كانت الظروف اقتضت تعديل بعض القضايا بحكم تغير الزمان والمكان[3].

واستطاع أبو زكريا بن عبد الواحد أن يشكل إمارة في تونس وقضى على البقية الباقية من بني غانية، واستولى على قسنطينة وبجاية ودخل تلمسان وأتته بيعة أهل طنجة وسبتة وسجلماسة، كما أتته بيعة بني مرين عندما كانوا يقاتلون الموحدين في المغرب الأقصى وكانت مناورة سياسية دلت على دهاء ومكر زعماء المرينيين[4]،

(1) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ص 121.
(2) المصدر السابق، ص 180.
(3) المصدر السابق.
(4) انظر: المغرب في تاريخ المغرب والأندلس، ص 127.

ودعا له عدد من ولاة الأندلس وبايعه أهل شرق الأندلس وإشبيلية والمرية، وإلى الأمير أبي زكريا عبد الواحد وجه أمير بلنسية وفداً برئاسة ابن الأبار يستصرخه لنجدة أهل بلنسية فقام ابن الأبار القضاعي بين يدي أمير الحفصيين منشداً قصيدته السينية الفريدة التي قال عنها المقري أنها فضحت من باراها وكبا دونها من جاراها[1] وهي:

أدرك بخيلك خيل الله أندلُسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهَبْ لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر مُلتمسا
وحاشى مما تُعانيه حُشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أصبح أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلمامُ بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحافُ نائبة ... تثني الأمان حذراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الأشراك مبتسماً ... جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها القوادي العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حرساً ... ومن كنائس كانت قبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدى بِيَعاً ... وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارساً للمثاني أصبحت دُرُسا
وأربُعاً نمنمت أيدي الربيع لها ... ما شئت من خلع موشية وكُسا
كانت حدائق للأحداق مونقةً ... فصوّح النصر من أدواحها وعسى
وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
سرعان ما عاش جيش الكفر واحربا ... غيث الدبا في مغانيها التي كسبا
وابتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الأسد الضاري لما افترسا
فأين عيش جنيناه بها خضراً ... وأين عصر جلبناهُ بها سلسا
محا محاسنها طاغ أتيح لها ... ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا
ورج أرجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشم من أعلامها خُنسا

(1) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 120).

خلا له الجو فامتدت يداه إلى ... إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً ... ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صل حبالها أيها المولى الرحيم فما ... ابقى المراسُ لها حبلاً ولا مرسا

إلى أن قال:

طهر بلادك منهم إنهم نجسٌ ... ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وأوطىء الفيلق الجرار أرضهم ... حتى يطأطىء راساً كل من رأسا
وانصر عبداً بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم أدمُعاً تهمي زكاً وخسا
هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت ... داءً ما لم تباشر حسمه انتكسَا
فاملأ هنئاً لك التأييد ساحتها ... جرداً سلاهب أو خطيئة دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه ... لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى[1]

ولقد لبى السلطان الحفصي النداء وأرسل السفن المحملة بالعدة والعتاد والرجال والمؤن إلى المدينة المحاصرة، إلا أن تلك الإغاثة لم تفد أهل بلنسية بسبب الحصار المحكم من قبل النصارى مما جعل أهالي المدينة يضطرون إلى التسليم والخضوع للمعتدين النصارى الحاقدين[2].

وفتح أبو زكريا أبواب إفريقية للهجرة الأندلسية وبلغ التأثير الأندلسي في الدولة الحفصية ذروته في عهد أبي عبد الله المستنصر خليفة أبي زكريا يحيى، وكان أعظم حكام دولة الحفصيين وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس الذين هاجروا إلى جواره.

لقد كانت مناورة أبي زكريا عبد الواحد السياسية حققت أهدافها حيث استطاع أن يمكن لبني حفص الحكم في إفريقية وتوسع نفوذه من أحواز طرابلس شرقاً إلى مدينة الجزائر غرباً، وبدا كأنه سيعيد الوحدة إلى أقطار المغرب[3].

ثانياً: ولاية العهد:

سلك الحفصيون ولاية العهد مسلك تعيين الأفراد من الأسرة الحاكمة. وفي

(1) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (3/ 120 - 122).
(2) المصدر السابق (3/ 122).
(3) انظر: المغرب في تاريخ المغرب والأندلس، ص 128.

عام 633هـ/ 1235م عين الأمير أبو زكريا ابنه على ولاية بجاية وحول له معظم الصلاحيات في سائر أعمالها.

وتميز أبو يحيى بحسن الكفاءة وسعة العلم وكثرة الورع وحب العدل، وجعل أهل مشورته وخاصته من أهل العلم والتقوى والدين والرأي السديد.

وكانت وصية أبي زكريا لابنه مليئة بالنصح والإرشاد ومما جعل وفي وصيته قبل موته في عام 647هـ/ 1249م:

1 - «المحافظة على إقامة شعائر الإسلام في اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه».

2 - تفقده للجيش وحسن معاملته لأفراده حسب درجاتهم، فلا يلحق السفيه بالكبير، فيجرىء السفيه عليه، ويفسد نية الكبير، فيكون إحسانه مفسدة له في كلا الوجهين.

3 - أوصاه الأمير بعدم الجزع عند حدوث الملمات؛ لأن الجزع يؤدي إلى القلق والاضطراب، وبالتالي إلى الفشل في معالجة الأمور، لذا عليه أن يعالجها بالصبر والاتزان مع استشارة النبهاء، وذوي التجارب من قادة الجيش.

4 - أن يحسن اختيار مستشاريه، ممن اتصفوا بصدق القول والإخلاص في العمل، وأن لا يقتصر في استشارتهم على أحد منهم دون الآخر، بل يأخذ بآرائهم جميعاً، فإن في تعداد الآراء هداية لمعرفة الصواب.

5 - عليه أن يتفقد أحوال رعيته، ويراقب العمال والولاة في أعمالهم، ويبحث عن سيرة القضاة وعن أحكامهم، ومهما دعي للكشف عن ملمة فليكشفها، ولا يراع من حكمه أحداً إذا زاغ عن الصواب، ولا يقتصر على شخص واحد فقط في رفع مسائل وحوائج المتظلمين من أبناء رعيته.

6 - أوصاه بالتواضع والصفح عن الهفوات؛ لأنهما أنجح الطرق في معالجة الأمور.

7 - أن يعاقب بشدة كل مفسد عابث في طرقات المسلمين وأموالهم، متمادٍ في غيه في فساد صلاحهم وأحوالهم، ومثل هذا ليس له إلا السيف.

أما الحسود فعليه أن لا يقيل عثرته؛ لأن في إقالته ما يشجعه على القول، والقول يدفعه إلى العمل، ووبال عمله يضر غيره، فليحسم داءه قبل انتشاره وبتدارك أمره قبل إظهاره.

8 - عليه أن يزهد في الدنيا، فلا ينشغل بلهوها وزينتها بل يعمل الأعمال الحميدة المشكورة التي تخلد ذكراه في الدنيا، وينال بها مرضاة الله في الآخرة»[1].

وبعد موت أبي زكريا تولى زعامة الحفصيين ابنه أبو عبد الله محمد الذي تسمى بالمستنصر بالله الذي أعلن نفسه أمير المؤمنين بعد سقوط بغداد بيد التتار عام 656هـ وكان إعلانه كأمير المؤمنين للمسلمين 657هـ/ 1259م وبايعه شريف مكة بالخلافة[2].

وحاول الحفصيون أن يستندوا إلى الأسس الشرعية اللازمة في باب الخلافة، كالأصل العربي، والنسب النبوي، إلى جانب قرابتهم للموحدين. فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب[3]، وعمر رضي الله عنه كما تعلم من أشراف قريش وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وقد تزوج النبي ﷺ ابنته حفصة فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي، وهذا النسب النبوي، وبحكم قرابتهم للموحدين، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة[4].

وحرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل، وإعلانه في كل حفل ومناسبة وتبارت أقلام كتابهم وقصائد شعرائهم بإطلاق اسم الدولة العمرية أو الفاروقية على الدولة الحفصية، وذكر نسبهم الذي يرجع إلى عمر الفاروق كما يقولون، فهذا ابن خلدون يمدحهم ويقول:

قـوم أبـو حـفـص أب لـهـم وما أدراك والـفـاروق هـو أول[5]

ودعم موقف الحفصيين في إعلان الخلافة سقوط بغداد بيد المغول واعتراف شريف مكة وأهل الحجاز بالخلافة الحفصية، وسارع ملك غرناطة ابن الأحمر بمبايعة الحفصيين وكذلك المرينيين في المغرب الأقصى.

يقول السلاوي الناصري: «ولما بلغ بنو مرين بالمغرب، وغلبوا على الكثير من ضواحيه، كانوا يدعون إلى أبي زكريا الحفصي تأليفاً لأهل المغرب، واستجلاباً

(1) ابن خلدون، تاريخ الدول (1/ 406 - 408).
(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي، ص 123.
(3) نفس المصدر السابق، ص 124.
(4) المصدر السابق، ص 124.
(5) المصدر السابق.

لمرضاتهم، وإتياناً لهم من ناحية أهوائهم، إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم. . .»[1] واعترف بنو زيان في تلمسان في المغرب الأوسط بهذه الخلافة.

وبذلك ظهرت خلافة قوية في الشمال الإفريقي عاصمتها تونس وبسطت نفوذها في بلاد الأندلس والمغرب والحجاز، وشعر حكام مصر بخطورة أهداف الخلافة الحفصية، وكانت السياسة المصرية في عهد المماليك تهدف إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية واقتصادية وسياسية، ومن أهم تلك الأهداف: السيطرة على البحر الأحمر وتجارته، فجميع الحكام الذين حكموا مصر واستقلوا بها، كالطولونيين، والإخشيديين والفاطميين (العبيديين) قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ثم جاء الأيوبيون والمماليك والعثمانيون، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب «خدام الحرمين»[2].

وكان يحكم مصر في تلك الفترة (658 - 676هـ) السلطان الظاهر بيبرس وكان من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر، واستطاع أن يهزم المغول عند الحدود العراقية، وعلى الصليبيين في الشام حتى صارت سيرته مضرباً للأمثال، رأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع أهداف دولته، لهذا عمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة 659هـ/ 1261م، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبايعه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة، ولقبه بالمستنصر بالله وقام الخليفة الجديد وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز، وما يغزوه من بلاد الأعداء وبهذا العمل كسب بيبرس نفوذاً أدبياً وروحياً وسياسياً ووجه ضربة موجعة للدولة الحفصية، وشرع بيبرس بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف وأرسل كسوة الكعبة وأرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب. . .إلخ، ثم أدى بيبرس فريضة الحج وظهر منه خشوع وكرم متميز وأزال أنصار الحفصيين، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصي، ووضع مندوباً تابعاً له بجانب شريف مكة إلا أن بعد مضي وقت قصير، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها في المنطقة التي تعيش فيها[3].

---

(1) انظر: السلاوي، الاستقصا (3/ 28 -29) نقلاً عن العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس.

(2) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص 127.

(3) انظر: المصدر السابق نفسه.

استطاع المستنصر أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي أن يطور الدولة ويجعلها مقصداً للعلماء والأدباء، وأن تتخذ مكانة رفيعة على المستوى الدولي في زمانه، وجاءته سفارات من دول متعددة، بعضها من السودان، وبعض آخر من أوروبا، واهتم بعاصمة الدولة، وتطور العمران وازدهرت الأحوال العامة في أيامه وأصبحت أعز أيام الدولة الحفصية.

وتعرضت الدولة الحفصية لهجمات نصرانية همجية يقودها لويس التاسع ملك فرنسا في سنة 668هـ/ 1270م أي بعد عشرين سنة من غزوته الخائبة لمصر، إلا أنها أخفقت، بسبب الوباء الذي عصف بها وعصف بحياة الملك نفسه[1].

مات المستنصر الموحدي عام (675هـ/ 1277م) وبعد انقضاء القرن السابع الهجري، ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها في المغرب والأندلس، ثم لم تلبث أن نخرتها وأضعفتها الحروب الأهلية، واستقلت بجاية عن تونس، وانتهز بنو مرين هذه الفرصة، وأخذوا يتدخلون في شئون الدولة الحفصية واستولوا على تونس عدة مرات[2] وأصبح الشمال الإفريقي في دوامة الصراع.

واستطاع الحفصيون أن يعودوا إلى حكم إفريقية، لدى انسحاب المرينيين، وبزغت مرحلة جديدة من الاستقرار النسبي في ولاية أبي العباس أحمد المعروف بالمستنصر 772هـ/ 1370 - 796هـ/ 1394م، واستطاع أن يقف أمام هجوم من النصارى على المهدية سنة 792هـ/ 1390م، فهزموهم واستعادت الدولة الحفصية شيئاً من هيبتها، وتمكن ابنه أبو فارس من الاستيلاء على تلمسان، وضم بعض الإمارات التي استقلت في حياة أبيه 803هـ/ 1400م، وعلى بسكرة سنة 805هـ/ 1402م ثم نجح في الاستيلاء على مدينة الجزائر سنة 813هـ/ 1410م.

وفي عهد أبي فارس قدمت السفارات إلى تونس من جميع الأنحاء تخطب مودته وتطلب مصالحته خاصة ومنها سفارة من غرناطة وفاس ومصر، وتوفي أبو فارس سنة 838هـ/ 1434م وخلفه ابنه الأصغر المستنصر فحكم 14 شهراً ومات، وفي عهد أخيه أبي عمر وعثمان اشتعلت نار الفتنة بسبب أطماع أبناء عمومته بالسلطان إلا أن أبا عمر استطاع أن يقضي على هذه الثورات سنة 850هـ/ 1446م ويهزم عمه أبا الحسن[3].

---

(1) المغرب في تاريخ المغرب، ص128.

(2) عام 1346، 1350، 1357م نقلاً عن العبادي: دراسات في تاريخ المغرب...، ص 129.

(3) المغرب الكبير (2/ 879).

وتقدمت تونس في مجال الحضارة في عهده، وشكلت علاقات ومعاهدات تجارية مع فرنسا، وسلاطين مصر والأندلس، ثم تمزقت وحدة الحفصيين بعد وفاته، وهاجم الإسبان سواحل تونس، وتبدلت الحال حتى أصبحت حال الحفصيين يرثى لها وعبر أبو محمد الحفصي عن الحالة التي وصلت إليها في بيت شعر قال فيه:

وكنا أسوداً والرجال تهابنا فجاء زمان فيه نخشى الأرانب[1]

وكان هذا الأمير قد تحالف مع الإسبان وثار عليه ابنه، فقبض عليه وسمل عينه وخلعه من منصبه، ثم قام الإسبان بمذبحة في تونس سنة 941هـ/ 1534م فكانت نهاية الحفصيين، وبدأ الصراع عليها بين العثمانيين والإسبان واستطاع العثمانيون أن يتغلبوا على الإسبان، وبذلك دخلت تونس في حكم الدولة العثمانية الإسلامية عام 976هـ/ 1568م[2].

وذكر الدكتور عبادة كحيلة أن الأمر خلص للعثمانيين عام 981هـ/ 1573م[3].

ثالثاً: طرابلس والدولة الحفصية:

اتخذ بنو حفص تونس مركزاً لسلطانهم وأرسلوا الأمراء على طرابلس، ومن أمرائهم على طرابلس أبو عبد الرحمن يعقوب الهرغي، وعبد الله بن إبراهيم بن جامع، ومحمد بن عيسى الهنتاتي، ويوسف بن طاهر اليربوعي، وقد حاول الأول الاستقلال بطرابلس ولكنه لم ينجح وثار أعيان طرابلس ضده فقبضوا عليه وقتلوه، ولم تظهر حركات انفصالية في عهد الوالي الثاني، أما الوالي الثالث فقد انفصل بطرابلس عن أمراء بني حفص في أثناء إمارة أبي عبد الله محمد (647 - 665هـ) فعاد يعلن ولاءه إليه وتبعيته لإمارته، وجاء يوسف بن طاهر اليربوعي فأعلن استقلاله التام عن الحفصيين واستبد بالأمر.

لقد كانت حركة انفصال المدن عن الدولة الحفصية كثيرة وكانت الثورات متصلة من أمير ضد أمير، وكان ذلك مما سبب الضعف والوهن للأسرة الحفصية الحاكمة، وفي مطلع القرن الثامن الهجري كان الاضطراب قد بلغ أشده، وكان زكريا بن أحمد

---

(1) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (4/ 305).

(2) المصدر السابق.

(3) انظر: المغرب في تاريخ المغرب، ص 132.

اللحياني أحد أمراء بني حفص قد عاد حديثاً من الحج إلى طرابلس، فاجتمع حوله الناس واختاروه أميراً لهم سنة 711هـ ورأى اضطراب الأحوال بتونس فعقد العزم على غزوها واحتل تونس وجعل ابنه أبا ضربة عليها ثم سار شرقاً حتى وصل إلى برقة ثم رجع إلى طرابلس[1].

وأصبحت طرابلس عاصمة النشاط السياسي بإفريقية حوالي ست سنوات، ثم انهزمت هذه الحركة أمام القوات التي قادها يحيى أبو بكر سنة 818هـ الذي استطاع أن يحرر تونس، ولكنه فشل في ضم طرابلس، بل ظل أمراء طرابلس يهددون تونس من حين إلى آخر[2].

رابعاً: طرابلس بين بني ثابت وبني مكي وبني حفص:

بنو ثابت عرب وشاحيون من بني سليم، آل إليهم حكم طرابلس من سنة 724هـ وظلوا يحكمونها - بدون استقرار - حتى قبيل غزو الإسبان لها[3].

ومن ولاة بني ثابت:

- ثابت بن محمد (الأول) 724هـ.
- محمد بن ثابت 730هـ.

غزا جزيرة جربة وضمها إلى طرابلس واستعادها بنو حفص سنة 748هـ[4].

- ثابت بن محمد بن ثابت الثاني 750هـ.

استطاع تجار جنوة أن يخدعوا الطرابلسيين ويحتلوا المدينة في عام 755هـ وهرب ثابت من المدينة وحيل بين الأهالي وبين أسباب الدفاع، وغلبوا على أمرهم فملكوا البلاد ونهبوا الأموال وتملكوا المتع، وأسروا الرجال وسبوا النساء، ونقلوا كل ما استطاعوا إلى جنوة، فتدخل بنو مكي وهم من البربر، ونسبهم في لواتة بزعامة أحمد بن مكي وكان حاكماً لقابس وتفاوض مع الجنويين وطلبوا أن يدفع لهم خمسين ألف مثقال من الذهب العين، فقبل، وأرسل إلى السلطان أبي عنان في تونس يستنهض

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي، ص 342.
(2) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (4/ 378).
(3) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (4/ 379).
(4) المصدر السابق.

همته في دفع المبلغ، فلم يتفاعل، فأخرج ما عنده ووقف معه أهل قابس والجريد وتم دفع المبلغ وحرر بذلك طرابلس وبعد ما مكث الجنويين حوالي خمسة أشهر.

وقد أرسل إليه سلطان الحفصيين أبو عنان المال الذي دفعه فاعتذر عن أخذه، وإنها لشهامة ونخوة ورجولة وموقف يدل على حميته الإسلامية القوية وعاطفته الجياشة نحو إخوانه في العقيدة[1].

وبعد هذا الموقف الشهم النبيل رأى السلطان أبو عنان أن يعقد لأحمد بن مكي على طرابلس فتولاها وجعلها دار إمارته وبقي أميراً عليها إلى أن توفي عام 766هـ.

وتولى ابنه عبد الرحمن ولاية طرابلس بعد وفاة أبيه فكان سيئ المعاملة عاجز الرأي مستبداً في الأمر كرهه الناس وسئموا حكمه.

واستطاع أبو بكر بن ثابت أن يحتل طرابلس بأسطول جاء به من مصر وقف الأهالي معه من أجل التخلص من ولاية عبد الرحمن بن مكي وعمل أبو بكر بن ثابت على تحسين علاقته مع بني حفص واعترف لهم بالولاء[2].

وبعد وفاة أبي بكر بن محمد سنة 792هـ ولي طرابلس ابن أخيه علي بن عمران ابن محمد بن ثابت واستطاع أن ينفصل عن الحفصيين وتعرض لحصار عنيف استمر لمدة سنة، إلا أنه قاوم ذلك واستطاع الحفصيون أن يدعموا ابن عمه يحيى بن أبي بكر واستطاعوا أن يمتلكوا طرابلس ويقبضوا على واليها علي بن عمران. وأسند الحفصيون ولاية طرابلس إلى يحيى بن أبي بكر ثم رأى الأمير الحفصي أن يعزل يحيى بن أبي بكر وعين عليها رجلاً من قبله يثق فيه وأصبحت طرابلس تابعة له. وانقرض حكم بني ثابت من طرابلس، وإمارتهم عليها[3]، بعد أن حكموها نحو 79سنة[4].

وتولى المنصور محمد بن عبد العزيز بن أبي العباس ولاية طرابلس عام 803هـ واستمر في الحكم إلى وفاته عام 833هـ.

ثم تولى ولاية طرابلس عبد الواحد بن حفص وقبل الشروع في عمله اشترط لقبولها شروطاً:

---

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 352.
(2) المصدر السابق نفسه، ص 353.
(3) المصدر السابق نفسه، ص 355.
(4) المصدر السابق نفسه، ص 346.

1 - أن يبقى واليها على البلاد ولا يعزل حتى يعيد البلاد إلى مجدها التجاري ونشاطها الثقافي.

2 - أن يستقل بالإدارة ولا يرد أمره في شيء.

3 - أن يتخذ من الجند لنفسه ما يريد.

وافق الأمير عبد العزيز الحفصي على تلك الشروط وظهر من عبد الواحد بن حفص حزماً ورأياً وإرادة ونشرالعدل ومنع الظلم واستتب الأمن واطمأن الناس على أموالهم وأرواحهم ونعمت البلاد بالخيرات واتسعت التجارات، وكثرت الأموال وبقي والياً إلى أن توفي 858هـ وكانت مدة حكمه 25 سنة كانت أيام رغد وهناء على أهل طرابلس[1].

ثورة بني غراب:

ثار بنو غراب على والي طرابلس أبي بكر بن عثمان وألقوا القبض عليه وأرسلوه إلى ابن أخيه يحيى بن محمد المسعود بن عثمان في تونس فسجنه ثم قتله.

ودخلت البلاد في الانقسامات والتحزب، وقام رجل يقال له منصور أصلح بين المتخاصمين وهدأت الفتنة، واختار الطرابلسيون الشيخ منصوراً وهو الذي سعى في الإصلاح والياً عليهم بدلاً من الحاكم الحفصي أبي بكر وسمع سكان الدواخل ببيعة الشيخ منصور حاكماً على المدينة، فجاءته البيعة من غريان، وترهونة ومسلاّتة وبني وليد، وخلفه رجل يقال له يوسف مات بالطاعون عام 885هـ وخلفه في الحكم مامي وبقي في الحكم نحو اثنتي عشرة سنة. وتوفي عام 898هـ واتفقت كلمة الطرابلسيين على تعيين الشيخ عبد الله بن شرف فولوه حاكماً عليهم، وكان رجلاً يميل إلى الزهد في الدنيا حتى لقب بالمرابط. وتغلب عليه أمر الزهد والانشغال بالعبادة ولم يكن أهلاً للولاية فأهمل تحصين البلاد، وتقوية أبراجها وأسوارها وإعداد الجند اللازم للدفاع عن المدينة، فأصبحت عرضة لطمع الأعداء ولم تكن ثورة بني غراب ذات أثر كبير على ثروة البلاد ودام حكم الشيخ عبد الله بن شرف نحو 18 سنة توسع أهالي طرابلس في التجارة وجمع الأموال والثروات[2].

(1) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص 357.

(2) انظر: المصدر السابق نفسه، ص 359.

ويرى الشيخ طاهر الزاوي بأن طرابلس منذ أن تولاها عبد الواحد بن حفص سنة 833هـ - إلى أن احتلها الإسبان سنة 916هـ كانت في رخاء مستمر وأمن شامل، واستطاع الأهالي أن يجمعوا ثروة هائلة كانت مضرب المثل في الشمال الإفريقي، وانغمس أهلها في متع الحياة ووقعوا في الترف الذي أفسد عزائمهم، وأخلاقهم وضعفت روح الجهاد والكفاح والنضال في نفوسهم، فطمع فيهم الأعداء من النصارى فتكالبوا عليهم[1] وحانت الفرصة للإسبان فجهزوا مائة وعشرين قطعة بحرية وانضمت إليها سفن أخرى من مالطة، وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الإسبان، وثلاثة آلاف من الإيطاليين والمالطيين. وفي 8 من ربيع سنة 916هـ تحركت قواتهم نحو طرابلس ووصلت أساطيلهم ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر، سنة 916هـ، الخامس والعشرين من يوليو سنة 1510م وبدأ القتال بين النصارى الإسبان والطليان والمالطيين وبين أهالي طرابلس، ولم تكن القوات متكافئة وسقطت المدينة في يد الأعداء، فهتكت الأعراض وسبيت النساء وقتل الرجال وديست المقدسات واستمر الإفساد الإسباني في البلاد ما يقرب من عشرين سنة ولم يستطيعوا أن يتجاوزوا فيها أسوار المدينة، ثم سلمت طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا في عام 942هـ 1535م واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام 958هـ/ 1551م حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار، ويحرّروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا، وسنتعرض للتفاصيل في الكتاب السادس من سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي بإذن الله تعالى عندما نتحدث عن الدولة السنية العثمانية العليّة ودورها في العالم الإسلامي عموماً والشمال الإفريقي خصوصاً.

خامساً: أسباب سقوط الدولة الحفصية

1 - اعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظر له ابن تومرت وحرصها على تبني عقائده الفاسدة بعد أن انكشف زيف العقيدة التومرتية ومنهجه البدعي لكثير من أهالي الشمال الإفريقي فأصبح الولاء ضعيفاً للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين استخدموا تبني منهج ابن تومرت كمناورة سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين.

(1) المصدر السابق نفسه، ص 360.

2 - الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي.

3 - استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصيين، فتضطر أحياناً الدولة لتجريد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسلطانها، فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال، وأحياناً تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن الضارية.

4 - استهدفت مدن إفريقية من قبل الإسبان النصارى والأوروبيين عموماً، فعملوا على تنصير الشمال الإفريقي والانتقام من المسلمين واستغلال خيراتهم وثرواتهم، فدخلت الدولة في صراع معهم انتهى بالتحالف بين الإسبان والحفصيين.

5 - ظهور قوى إسلامية سنية أصيلة متمثلة في السلطنة العثمانية والتي استطاعت أن تهزم النصارى في ميادين البر وميادين البحر، وكان دافع الدولة العثمانية في صراعها مع النصارى نصرة الإسلام والمسلمين وحب الجهاد في سبيل رب العالمين.

6 - تطلع أهالي الشمال الإفريقي إلى قوة إسلامية سنية تقوم بتحريرهم من الإسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها، فوجدوا في العثمانيين بغيتهم فراسلوهم واتصلوا بهم وتعاونوا على البر والتقوى من أجل إعزاز الإسلام والمسلمين ودحر النصارى الغاصبين.

7 - كان سقوط دولة الحصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه من التنازع بين المسلمين وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى.

الخلاصة

1 - يعتبر محمد بن تومرت المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين؛ لأنه وضع الخطوط العريضة التي قامت عليها الدول.

2 - يعتبر منهج ابن تومرت خليطاً من علم الكلام والمعتزلة والأشاعرة والإمامية والخوارج.

3 - لم يتورع ابن تومرت في سفك الدماء وسبي النساء وتكفير المسلمين، واستخدام الأساليب الملتوية من الكذب والخداع من أجل الوصول إلى أهدافه.

4 - يعتبر ابن تومرت هو الناشر الفعلي لعقائد الأشاعرة في الشمال الإفريقي بقوة السلطان، وتأليفه لكتب في مجال العقائد حكم عليها علماء أهل السنة بالابتداع.

5 - أخطاء بعض المعاصرين عندما نظروا إلى حركة ابن تومرت كحركة إصلاحية؛ لأنها في الحقيقة كانت حركة تدميرية بعيدة عن معالم الإصلاح التي جاءت في الكتاب والسنة؛ بل كانت حركة ابن تومرت من الأسباب البعيدة في ضياع الأندلس وتمزق وحدة الشمال الإفريقي.

6 - كانت لابن تومرت عبقرية تنظيمية ومنهجية تربوية وأهداف سياسية سعى بكافة الوسائل والأساليب لتحقيقها.

7 - ساعدت سذاجة المجتمع المغربي وجهله على تغلغل معتقدات ابن تومرت المنحرفة في أوساطه.

8 - تزعم عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين بعد موت ابن تومرت وخاض حروباً ضارية انتهت بسقوط دولة المرابطين وتوحيد الشمال الإفريقي.

9 - ظهرت مواهب سياسية فذة عند عبد المؤمن بن علي تمثلت في إبعاده لقبائل المصامدة عن الحكم، وتقريبه لقبائل بني هلال وبني سليم منه، وإسناد أمر حمايته إلى قبيلة كومية، وتدرج في القضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات، وجعل الحكم وراثياً في أسرته.

10 – لم يلتزم عبد المؤمن بالمنهج التومرتي حرفياً وإنما استفاد منه فيما يحقق أغراضه وأهدافه السياسية ولذلك نجده ينحرف عن تعاليم ابن تومرت كلما حانت له فرصة، كما حدث عندما ألغى نظام الطبقات وهذا العمل يدل على عدم اعتقاده في عصمة ابن تومرت وإن كانت توجيهاته وأوامره إلى كافة الموحدين تحض على ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها ويعتبر ذلك تكتيكاً من عبد المؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت.

11 – تولى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عام558هـ بعد مؤامرة دبرت لخلع أخيه واستقر له الحكم وبايعه جميع الموحدين في 563هـ وكان أبو يعقوب مولعاً بحب الفلاسفة ولذلك قرب إليه ابن طفيل.

12 – عمل أبو يعقوب يوسف على ضم الأندلس بالقوة واستطاع محمد بن مردنيش أن يقاتل الموحدين لمدة طويلة واستنزف جهودهم وأخذ من أوقاتهم وقتل من رجالهم، وشجع الأمراء الطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا فرصة انشغال الموحدين به، وشقوا عصا الطاعة ولم يستطع الموحدون أن يضموا شرق الأندلس لدولتهم إلا بعد موت ابن مردنيش عام 567هـ.

13 – اشتعلت ثورات المغرب الأقصى ضد دولة الموحدين عام 559هـ وكانت ثورات ضارية أضعفت قوات الموحدين وأوهنت شوكتهم إلا أن الموحدين استطاعوا أن يقضوا على ثورتي صنهاجة وغمارة عام 563هـ.

14 – قامت في المغرب في قفصة في عام 575هـ ثورة ضد الموحدين بقيادة علي ابن المعز بن المعتز الرندي واستطاعت تلك الثورة أن تخلص قفصة من تحت حكم الموحدين إلا أن جيوش الموحدين الجرارة استطاعت إرجاعها في عام 576هـ.

15 – عجز يوسف بن عبد المؤمن أن يحقق نصراً حازماً على النصارى في الأندلس، لعدة أسباب منها نقص الخبرة العسكرية والسياسية عند الخليفة الموحدي، وعدم قدرته على تقدير الظروف، وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق، وميولاته الفكرية التي طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية وانشغاله بالمناقشات الفكرية حتى عند حصاره لأعدائه، وبسبب ضعف ولاء المسلمين لدولة الموحدين بسبب انحراف منهجها وظلمها للرعايا، كما أن الخليفة الموحدي يوسف كان حريصاً على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم إصغائه لنصح الناصحين.

16 - توفي السلطان يوسف في 580هـ ودفن في تينملل بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره وهو يعد من كبار الخلفاء الموحدين والسلاطين العظام في تاريخ المغرب الإسلامي.

17 - تولى أبو يوسف يعقوب بعد وفاة أبيه، فقام بالأمر أحسن قيام وأظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات.

18 - صرح السلطان يعقوب المنصور بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت، وحرص على مجالسة الصلحاء والمحدثين.

19 - عمل السلطان يعقوب على القضاء على ثورات بني غانية والأعراب واستطاع أن يخضد شوكتهم وأن يوحد الشمال الإفريقي كله.

20 - عمل على استنفار المسلمين في بلاد المغرب كلها من أجل الجهاد ضد النصارى واستجاب له المسلمون وتوافدوا على معابر العبور استعداداً للجهاد ضد النصارى في الأندلس.

21 - استطاع يعقوب المنصور أن يحقق نصراً حاسماً على النصارى في الأندلس في معركة الأرك عام 591هـ وترتب على هذا النصر الحاسم نتائج عظيمة للمسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي من أهمها ارتفاع الروح المعنوية لمسلمي الأندلس، وسقوط هيبة ملوك النصارى.

22 - نستطيع أن نقول بأن يعقوب المنصور أخذ بأسباب النصر المعنوية، والحسية حيث شرع في تحشيد الجيوش وترتيبها وتنظيمها، ووحد القيادة، وأعطى مجلس الشورى صلاحيات واسعة، وأسند المهام إلى أهلها. . . . إلى آخره.

23 - طلب السلطان صلاح الدين الأيوبي من يعقوب المنصور أن يمده بمدد ضد النصارى في المشرق إلا أن السلطان يعقوب امتنع لأسباب سياسية وعقدية ونفسية ومع هذا أكرم رسول صلاح الدين غاية الإكرام ولم يمتنع المغاربة من المساهمة في جهاد المسلمين ضد النصارى في المشرق تحت قيادة صلاح الدين.

24 - توفي السلطان يعقوب المنصور عام 595هـ بعد أن جاهد بالسيف وحرص على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم نحو منهج أهل السنة والجماعة.

25 – تولى أبو محمد عبد الله الناصر لدين الله خلافة الموحدين عام 595هـ واستطاع أن يقضي على ثورة بني غانية وأن يوحد المغرب كله الأقصى والأوسط والأدنى، وعبر بجيوش ضخمة جبل طارق قاصداً جهاد النصارى في الأندلس وانهزم في معركة العقاب عام 609هـ أمام الجحافل النصرانية ثم رجع إلى المغرب وانهمك في الشهوات والملذات حتى قتل مسموماً عام 910هـ.

26 – بعد هزيمة العقاب توغل النصارى في مدن وقرى المسلمين مرتكبين أشنع المجازر البشرية من قتل وهتك الأعراض وسبي النساء ويتقدمهم القساوسة بالأناشيد والتشجيع على استئصال المسلمين من ديار الأندلس.

27 – تعتبر موقعة العقاب بداية الانهيار الفعلي لدولة الموحدين ولقد كان لصغر سن الخليفة وقلة خبرته وإعجابه بنفسه وتسلط الوزير ابن جامع عليه دور في هزيمة العقاب.

28 – لقد ساهمت عوامل عديدة في سقوط دولة الموحدين ومن أهمها: هزيمة معركة العقاب وظلم الموحدين للمرابطين، والثورات المتتالية في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط، والنزاع على الخلافة داخل البيت الموحدي، والانهيار العسكري الذي أصاب القوات الموحدية، وانكماش العقيدة التومرتية في نفوس الموحدين، وتحول الحكم إلى الوراثة.

29 – بعد زوال دولة الموحدين في عام 668هـ/ 1269م انقسم الأندلس والشمال الإفريقي إلى دويلات من أهمها: دولة بني الأحمر في غرناطة، وبني مرين في المغرب الأقصى، وبني عبد الواد في المغرب الأوسط، وبني حفص في المغرب الأدنى.

30 – كان لظهور مملكة غرناطة وصمودها أمام الهجمات النصرانية أسباب من أهمها: موقعها الجغرافي المتميز، ووقوف دولة بني مرين معها بكل ما تملك، هجرة الكوادر الأندلسية من المدن الإسلامية التي سقطت إليها، قانون التحدي عند الشعور بالخطر، حب أهالي غرناطة للجهاد في سبيل الله، براعة حكام غرناطة في إدارة الصراع العسكري والسياسي.

31 – ظهر في ميدان الجهاد الأندلسي السلطان أبو يوسف يعقوب المريني الذي استطاع أن يحقق نصراً حاسماً على النصارى في معركة قرب إستاجة وظهرت ملكات

قيادية للسلطان المريني تمثلت في أمور منها: اهتمامه بعنصر الاستطلاع، إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة، خطبته المؤثرة في جنوده، دخوله في المعركة بنفسه وقتله للنصارى بيده.

32 - كانت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر يعتريها الذبول والشك بسبب عملاء النصارى الذين استطاعوا أن يقنعوا بني الأحمر بعقد اتفاقات مع ملوك النصارى إلا أنها سرعان ما تتبخر أمام الخطر الداهم وترجع علاقات المسلمين إلى مجاريها الطبيعية.

33 - كان لمشيخة الغزاة دور عظيم في الدفاع عن غرناطة، ولقد سجلت لنا كتب التاريخ انتصارهم الساحق على جيوش النصارى وكانت أعداد مشيخة الغزاة قليلة أمام قوات النصارى إلا أنهم عوضوا نقصهم بالإيمان وصحة اللجوء إلى الله، فأنزل الله نصره عليهم وكان ذلك النصر العظيم الذي حصد فيه أمراء النصارى وملوكهم في عام 719هـ وكان عدد الملوك والأمراء القتلى أكثر من عشرين والقتلى من الجنود أكثر من خمسين ألفاً.

34 - كانت موقعة طريف في عام 741هـ والتي انهزم فيها المسلمون وضعفت شوكتهم أمام النصارى لم يشهد المسلمون مثلها منذ وقعة العقاب، ولقد استشهد في هذه المعركة مجموعة من العلماء من أشهرهم المفسر الكبير محمد بن جزي، ووالد لسان الدين الخطيب.

35 - اندلعت الحرب الداخلية في غرناطة بسبب النساء واستغل ملوك قشتالة هذه الفرصة وتحركوا من أجل احتلال غرناطة في عام 887هـ واستطاع أبو عبد الله الصغير أن يستولي على عرش غرناطة بعد أن أزاح والده عنه، وباشر الحروب بنفسه ضد النصارى إلا أنه وقع أسيراً بيد النصارى عام 888هـ.

36 - استطاع ملك قشتالة أن يستفيد من أبي عبد الله الصغير وأطلق سراحه في الوقت الحرج الذي زاد من الصراع الداخلي في غرناطة بعد أن جعله يوقع على وثيقة الخنوع والخضوع لملك قشتالة.

37 - في عام 897هـ حاصرت جحافل النصارى غرناطة ونقضوا كل العهود والمواثيق وضيقوا الخناق على المسلمين حتى اضطروا إلى تسليمها، ليدخل المسلمون تحت ظلم وعسف وجور محاكم التفتيش بعد ذلك بسنين.

38 - كانت محاكم التفتيش مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب، ولقد ارتكبت في حق المسلمين ما تقشعر منه الأبدان وتشيب من هوله الولدان.

39 - حاول المستضعفون من المسلمين أن يحافظوا على دينهم ومعتقدهم وراسلوا العلماء ليستفسروا عن بعض الفتاوى وقد دونت في هذا البحث إحدى الفتاوى الهامة.

40 - كانت هناك أسباب عديدة ساهمت في سقوط الأندلس من أهمها: تفكك وحدة الشمال الإفريقي، الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف، الاختلاف والتفرق بين المسلمين، موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم، التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة، غدر النصارى ونقضهم للعهود، إلغاء الخلافة الأموية وظهور عصر الطوائف، عدم قيام العلماء بدورهم المطلوب، الرضا والخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم، سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات.

41 - لقد تباعد أهالي الأندلس عن تحكيم شرع الله، فترتب على ذلك ضنك في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وضياع الملك والعزة والتمكين.

42 - زالت دولة الموحدين من الوجود عام 668هـ واستولى على مقاليد الحكم في المغرب الأقصى بنو مرين.

43 - حاولت دولة بني مرين أن توحد المغرب كله الأقصى والأوسط والأدنى ونجحت في فترات قصيرة في هذا الهدف إلا أنها ضعفت وتقلصت ثم زالت من الوجود عام 869هـ وسجل لها التاريخ جهادها العظيم ضد النصارى في الأندلس.

44 - من أهم أسباب سقوط دولة بني مرين: دسائس ملوك الإسبان، وتحالف غرناطة معهم ضد بني مرين، ودخولهم في صراع مرير مع دويلات المغرب، وتولي الحكم بعض الأمراء الضعاف، الخطر الخارجي من البرتغال على موانئ الدولة، وغير ذلك من الأسباب.

45 - بعد سنتين من تولي أبي عبد الله محمد الإدريسي الحكم بفاس خرج عليه الشيخ محمد الوطاسي واحتل فاس وأقام الدولة الوطاسية وكان دخوله لفاس عام 877هـ/ 1472م.

46 - استطاع السعديون أن يسقطوا الدولة الوطاسية في عام 956هـ وساعدتهم عدة عوامل في نجاحهم الكبير منها: دخول الوطاسيين في معاهدات مع الإسبان والبرتغاليين، عجز الدولة الوطاسية عن حماية أراضيها وموانيها، فظهر السعديون كقادة لحركة جهاد تبنت أهداف الشعب المغربي، فالتف الشعب حولهم.

47 - استطاع الأمير أبو مروان عبد الملك السعدي أن يتحالف مع العثمانيين فساعدوه على تخليص المغرب من ابن أخيه محمد المتوكل وبايعه أهل المغرب عام 983هـ.

48 - كان السلطان عبد الملك يمتاز بالذكاء والقدرة على التخطيط وله من بعد النظر حظ وافر، فأقام دولته على أسس علمية، وسلح جيشه وطور بلاده واستفاد من النظم الإدارية والعسكرية العثمانية.

49 - حقق السعديون بقيادة السلطان عبد الملك وأخيه أحمد المنصور انتصاراً حاسماً على النصارى في معركة وادي المخازن في 986هـ وتجلت عبقرية السلطان عبد الملك العسكرية في وضعه خطة محكمة وشرع في تنفيذها بنفسه.

50 - استشهد السلطان عبد الملك في وسط المعركة وتولى أخوه أحمد المنصور الحكم من بعده وبايعه أهالي المغرب.

51 - كان السلطان أحمد المنصور الذهبي متبحراً في العلم وترك مؤلفات في فنون متعددة منها: أدبية وشعرية وحديثية ومن أشهر كتبه «المعارف في كل ما تحتاج الخلائق».

52 - استطاع السلطان أحمد المنصور أن يقطع بدولته أشواطاً نحو التقدم والازدهار وبناء الدولة على أسس علمية متطورة في كافة مجالات الدولة.

53 - بعد وفاة السلطان أحمد المنصور في عام 1012هـ/ 1603م ضعفت الدولة السعدية ودخلت في حالة من التفكك والصراع الداخلي وانفصلت عن كيانها مجموعة من الإمارات والولايات وانتهت فعلياً على يد قبيلة الشبانات العربية في عام 1069هـ/ 1658م وأزالوا نهائياً الأسرة السعدية.

54 - لم تستطع قبيلة الشبانات أن تقوم بالدور القيادي في المغرب فكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة

الشعب المغربي في عام 1075هـ/ 1412م وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش ولا تزال أسرة الأشراف العلويين إلى يومنا هذا في حكم المغرب الأقصى.

55 – حكم المغرب الأوسط بنو عبد الواد بعد زوال دولة الموحدين واستمرت دولتهم لمدة ثلاثة قرون وتعرضت لمخاطر عظيمة من أشدها احتلال الإسبان لمدينة وهران وبجاية في عام 915هـ/ 1511م وزالت الدولة الزيانية من الوجود عام 962هـ/ 1554م على يد الفاتحين العثمانيين.

56 – حكم إفريقية في فترة حكم الدويلات للشمال الإفريقي بنو حفص وتعرضت دولتهم للمد والجزر وزال ملكهم من الوجود في عام 976هـ/ 1568م على يد العثمانيين.

57 – سقطت مدينة طرابلس الحبيبة تحت قبضة الإسبان في عام 916هـ ثم سلمت إلى فرسان القديس يوحنا في عام 942هـ/ 1535م واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام 958هـ/ 1551م حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار ويحرروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا.

obeikandl.com

أهم مراجع البحث

1 - **ابن جزي ومنهجه في التفسير**: علي محمد الزبيري، دار القلم، الطبعة الأولى، 1407هـ، 1987م.

2 - **ابن خلدون**، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدإ والخبر، مؤسسة جمال، بيروت - لبنان.

3 - **أعز ما يطلب لابن تومرت**، تقديم وتحقيق عمار الطالبي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة 1985م.

4 - **ابن ماجه** للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار التراث العربي.

5 - **أشراط الساعة** للوابل، يوسف عبد الله الوابل، الطبعة الثالثة، 1411هـ، 1991م، دار ابن الجوزي.

6 - **إلجام العوام عن علم الكلام**، لأبي حامد محمد محمد الغزالي الطوسي.

7 - **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، لابن عذارى المراكشي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط3، 1983م.

8 - **المغرب الكبير**، د. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.

9 - **البيذق أخبار المهدي ابن تومرت**، أبو بكر الصنهاجي، تحقيق ليفي بروفنسال، باريس 1928م.

10 - **الدعوة الموحدية بالمغرب**، عبد الله علي علام، دار المعرفة بالقاهرة، الطبعة الأولى 1964.

11 - **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة 1963م.

12 - **النهاية، الفتن والملاحم**، للحافظ إسماعيل بن كثير، تحقيق د. طه زيني، دار النصر للطباعة، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت، سنة 1399هـ.

obeikandl.com

13 - **المنار المنيف لابن القيم**، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، 1390هـ.

14 - **النبوة والأنبياء**، لمحمد علي الصابوني.

15 - **الملل والنحل** للشهرستاني، للعلامة أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت الطبعة الثانية، 1395هـ.

16 - **الحموية**، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.

17 - **أخبار المهدي**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بتونس، 1395هـ.

18 - **الكامل في التاريخ لابن الأثير**، لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1408هـ، 1989م.

19 - **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، مؤلف مجهول، اعتنى بنشره السيد بشير الفورتي، تونس 1329هـ.

٢٠ -**ابن صاحب الصلاة**، عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي.

21 - **المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين**، دار الأندلس - بيروت، الطبعة الأولى 1983م.

22 - **الدور الفكري للأندلس والمغاربة في المشرق**، د. علي أحمد، دار شمال دمشق، 1995م.

23 - **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ليوسف بن تغري الأتابكي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي في مصر.

24 - **المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب**، د. عبادة كحيلة، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.

25 - **التكملة، لكتاب الصلة**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبّار.

26 - **العقاب**، شوقي أبو خليل، دار الفكر، تصوير 1405هـ، 1985م عن ط1 1979م.

27 - **الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس**، تجيب زبيب، دار الأمير، الطبعة الأولى1415هـ، 1995م.

28 - **السنن الإلهية**، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1413هـ، 1993م.

29 - **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح الدين المنجد.

30 - **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، لابن بسام أبي الحسن علي الشنتريني.

31 - **الأعلام**، لخيرالدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.

32 - **الإمام مالك بن أنس**، عبد الغني الدقر، دار القلم، الطبعة الثانية، 1410هـ، 1990م.

33 - **الأرك**، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الأولى 1979م.

34 - **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**: الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.

35 - **الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة**، للسيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري، طبع دار الكتب العلمية بيروت، سنة 1399هـ.

36 - **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية**، سليمان بن عبد الله الباروني النفوسي، مطبعة الأزهار البارونية.

37 - **الإبانة عن أصول الديانة**، لأبي الحسن الأشعري، نشر دار البيان، دمشق، سنة 1401هـ.

38 - **بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية**، مجموعة من البحوث التي ألقيت في ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى الأستاذ د. أحمد فكري 16 - 20 أكتوبر 1976م شباب الجامعة.

39 - **تاريخ الإسلام**، د. حسن إبراهيم حسن، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة عشر 1411هـ، 1991م.

40 - **تاريخ الفتح العربي في ليبيا**، الطاهر أحمد الزاوي، دار التراث العربي، الطبعة الثالثة.

41 - **تاريخ عصر النهضة الأوروبية**، د. نور الدين حسام، دار الفكر، طبعة 1968م.

42 - **تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر الهجري**، تأليف مجموعة من الأساتذة، دار الأمل للنشر والتوزيع.

43 - **تاريخ الأندلس**، عبد الرحمن الحجي، دار القلم، الطبعة الرابعة 1415هـ، 1994م.

44 - **تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، د. حمدي عبد المنعم محمد حسين، مؤسسة شباب الجامعة، طبعة 1986م.

45 - **تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت**، د. عبد المجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية 1415هـ/ 1995م.

46 - **تفسير الرازي**، للإمام الفخر الرازي.

47 - **تفسير القرطبي**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.

48 - **تفسير الألوسي**، روح المعاني للإمام الألوسي.

49 - **البداية والنهاية** لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريان، الطبعة الأولى 1408هـ، 1988م.

50 - **دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية**، د. عبد الحليم عويس، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، 1410هـ، 1989م.

51 - **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس**، د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة.

52 - **دعوة الحق**، السنة 19، العدد 8، رمضان 1398هـ.

53 - **ديوان التحقيق والمحاكمات**، لمحمد عبد الله عنان.

54 - **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي**، عزالدين عمر أحمد موسى، دار الشروق، الطبعة الأولى، 1403هـ، 1983م.

55 - **دولة المرابطين**، سلامة محمد سلمان الهرفي، دار الندوة 1405هـ/ 1985م.

56 - **دائرة معارف القرن العشرين**، لمحمد فريد وجدي، مطابع دائرة معارف القرن العشرين، الطبعة الثالثة 1343هـ.

57 - **رحلة ابن جبير**، أبو الحسن محمد بن أحمد، دار صادر، بيروت 1964.

58 - **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، يوسف أشباخ، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1958م.

obeikandl.com

59 - **تفسير المنار**، لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية بالأوفست.

60 - **درء تعارض العقل والنقل**، الإمام شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.

61 - **سقوط الأندلس**، د. ناصر العمر، مؤسسة المؤتمن، دار الوطن، الطبعة الأولى 1412هـ.

62 - **سقوط غرناطة**، شوقي أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الثانية 1981م.

63 - **سقوط دولة الموحدين**، د. مراجع عقيلة الغناكي، 1409هـ، 1988م منشورات جامعة قاريونس.

64 - **سير أعلام النبلاء**، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثانية، 1402هـ.

65 - **سنن أبي داود**، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني.

66 - **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي، المسمى ابن العماد (ت: 1089هـ).

67 - **صحيح البخاري**، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى 256هـ.

68 - **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث.

69 - **صحيح الجامع للألباني**، تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1388هـ.

70 - **صلاح الأمة في علو الهمة**، د. سيد بن حسين العفاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997.

71 - **صلاح الدين بطل حطين**، عبد الله علوان، دار السلام، القاهرة، الطبعة السادسة، 1405هـ/ 1985م.

72 - **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1964م.

73 - **عقيدة أهل السنة والجماعة والأثر في المهدي المنتظر**، للشيخ عبد المحسن حمد العباد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى.

74 - **عقد بيعة بولاية العهد**، في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، حسن مؤنس.

75 - **عقائد الإمامية**، لمحمد رضا ظافر.
76 - **عوامل النصر والهزيمة**، لشوقي أبي خليل، دار الفكر، دمشق الطبعة الثانية 1407هـ، 1987م.
77 - **غرناطة في ظل بني الأحمر**، د. يوسف شكري فرحات، الطبعة الأولى، 1402هـ، 1982م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
78 - **فقه التمكين عند دولة المرابطين**، علي محمد محمد الصلابي، سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي.
79 - **فتح الباري، شرح صحيح البخاري**، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية ومكتبتها، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.
80 - **فتاوى ابن تيمية**، لأبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد قاسم.
81 - **قيام دولة المرابطين**، لحسن أحمد محمود القاهرة، 1957م.
82 - **قادة فتح بلاد المغرب**، محمد شيت خطاب، دار الفكر، الطبعة السابعة، 1404هـ/ 1984م.
83 - **موسوعة التاريخ الإسلامي**، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة العاشرة سنة 1995م.
84 - **مجموعة رسائل ابن حزم**.
85 - **موسوعة المغرب العربي للغنيمي**، عبد الفتاح مقلد الغنيمي، الناشر، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، 1414هـ/ 1994م.
86 - **مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا**، رسالة ماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، مكة 1979م لم تطبع.
87 - **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، د. حسين مؤنس، الطبعة الأولى، القاهرة 1980م.
88 - **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، شرح وتحقيق أحمد شاكر، أتمه د. عبد الحسين عبد المجيد هاشم، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى.
89 - **مجلة المنار**، لمحمد رشيد رضا.
90 - **الأغالبة سياستهم الخارجية**، محمود إسماعيل.

obeikandl.com

91 - **مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود**، العدد السادس، 1413هـ، 1992م، مجلة محكمة.

92 - **نظم الجمان في أخبار الزمان**، لابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد الفاسي.

93 - **نظم المتناثر في الحديث المتواتر**، للشيخ جعفر الحسني الإدريسي الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت 1400هـ.

94 - **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، المقري، تحقيق، د. إحسان عباس.

95 - **وادي المخازن**، لشوقي أبي خليل، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى 1409هـ/ 1988م.

96 - **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، شمس الدين أبو العباس ابن خلكان، دار صادر بيروت، حققه د. إحسان عباس.

obeikandl.com